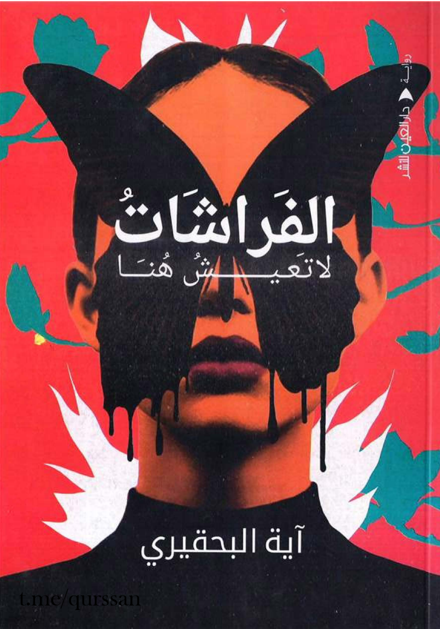

الفَراشَاتُ
لاتَعيشُ هُنَا
آية البحقيري
رواية
دار العين للنشر
t.me/qurssan

الفراشات لا تعيش هنا

رواية

آية البحيري

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail .com

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٦٤٥١/ ٢٠١٩

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 568 - 1

الفراشات لا تعيش هنا

روايـة

آيـة البحقيري

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

البحقيرى، آية

الفراشات لا تعيش هنا: رواية/آية البحقيرى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٥٦٨ ١

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٦٤٥١ / ٢٠١٩

إهـــداء

أدين لأبي وأمي بكل شيء،

فلقد تعلمت بفضلهما أن أكون ما أنا عليه الآن.

القسم الأول

«ثمة شيء في طفولتك حدث، وبدون أن تعي ذلك، كل شيء سيدور حوله لآخر لحظة من حياتك».

أحلام مستغانمي

• I •

«صعوبة أن تأتي إلى الحياة كامرأة».

ليلى

«لم يسعَ الله أن يكون في كل مكان لذلك خلق الأمهات».

"مثل يهودي"

1

لم تكن إرادة الهرب كافية للخروج من بيتنا دون عودة لأتخلص مما عشته نهائيًا، لأني بعد كم العذاب المضجر الذي أختبره مع كُل خيبة جديدة تعصف بي لا زالت تسحبني ذاكرتي إلى الوراء لأجدني أسيرة تفاصيل عشتها بين جدرانه الكئيبة التي لعنتها يوم رحيلي هي وكُل شبر في بلدتنا ظنًّا أنني قادرة على محو الماضي بشكل يحميني من التعثر به في مستقبل تخيلته آنذاك أكثر أمانًا.

اليوم أعترف وقد أصبحت امرأة ناضجة حضنتها التجارب على خفض سقف أحلامها الذي كان شاهق العلو والتمتع بأكبر قدر ممكن من الواقعية، بأن بُعدي عن بيتنا لم يكن قرارًا متزنًا بل رحلة هروب مستمرة كان لا بد لها من الانتهاء مهما طالت مُدتها، لأقف مجددًا فوق نقطة الصفر أتأمل نهاية رحلة بدأت بدافع هزائم الطفولة التي أثقلت ظهري وحملتها بداخلي

كالبركان القابل للانفجار في أي لحظة فقادني لخسائر متوالية وحرائق أكثر وحشية.

أرتكبت جرائم مهينة في حق نفسي أتذكرها بالتفاصيل، وكُلما تذكرت الخسائر المترتبة على تلك الجرائم حضرت ملامح وجه أمي التي بهتت على مدار سنوات وهي تلعب دور كبش الفداء بدلًا مني أنا وأختي.

لا أبالي بما ضاع من عمري أدراج الرياح كل ما يستحوذ على كياني الآن أنني أود رؤية أمي شمعة الدار التي سرقها مني الموت بغته دون سابق إنذار، كُنت أريد أن أودعها لمرة أخيرة مقدمة إليها اعتذارًا على بشاعتي القاحلة وجحودي تجاهها بعد أن احترقت نفسيًا كي لا تمس بنتيها نار، لكننا خذلناها ثم احترقنا بالتبعية.

للذاكرة حيل مُرعبة، لم تكن تضحيات أمي أمرًا سهلًا، بل إنها مسيرة طويلة على كل الأطراف، بالنسبة إليَّ نمّت فيّ شعورًا هدامًا بالذنب تجاهها والذي جعلني أشعر بعجز عن تسديد الدين المعلق في رقبتي تجاهها، بعض التضحيات مدمرة لا لأصحابها فقط وإنما لمن حولهم أيضًا، ألم متعذر عن الوصف أن تكبر على حساب إنسان يستهلك نفسه وشبابه وكرامته كي يضع في حسابك أنت ما سُلب منه أو بالأحرى ما يتنازل عنه لأجلك.

تحاشيًا لأسئلة أمي التي لا إجابات مطمئنة لها في جيوبي تجنبت العودة إليها رغم احتياجي الدائم لاحتضانها والانحناء فوق جسدها النحيل لتقبيل رأسها زارفة كُل دموع الندم مستحضرة سرًا كُل موقف أفسد حياتي، مرددةً بداخلي عن قناعة:

«لقد عدت يا أمي، لا بأس أنني تأخرت ما دمت قد جئتك قبل فوات الأوان، أعرف أنني ثقبت قلبك يا عجوز مثلي مثل كُل الذين فركوا روحك بين يديهم بنزق، وخيبت ظنك القديم بأنني أنضج من أختي وبكريتك، كان عليّ الابتعاد لأرى بوضوح المغزى من صبرك في سنواتنا العجاف، لأتفهم أن انحناءك أمام العواصف الدنيوية ليست خنوعًا بقدر ما كانت ذكاء خارقًا ومرونة في التعامل مع الأزمات، حددتِ قائمة بأولوياتك في الحياة لم يكن بها إلا أنا وأختي وقد بدا اختيارك جافًّا وقاسيًا تجاه نفسك لكنه كان الأنسب لامرأة ولدت بقلب أم، اغفري يا أمي لعين الصغير ضيق رؤيتها التي لم تكن تتسع لاختيارات بهذا الحجم العظيم».

فضلت ألا أعود إليها بعد أن تلوثت بشكل لا يتناسب مع طهر روحها والتي كانت ستكتشف من خلالها أمر الكذبة إن سألتني عن حال قلبي مع الله وأجبتها على استحياء أنه بخير متجنبة النظر إلى عينها مباشرة، قديمًا نجحت في طمس آثار جريمة العجوز، حينها كُنت في صراع مع الحياة التي كانت لمن هم مثلنا حلمًا بعيدًا أردت فقط أن أعيش مثل البشر فتماديت في الكذب لمواساة نفسي بأن الخسارة ليست فادحة للدرجة التي تمنعني من الاستمرار في تغفيلك، رغم ثقتي بأن قلب الأم لا يُخدع أبدًا وبأنك كُنتِ تشعرين بحدث مريب يجري من خلف ظَهرك، لكنك فضلتي مواجهة الشك بالصمت، فتحويل الشك إلى يقين كَان يتطلب منكِ جرأة لا تملكينها، بعض اليقين يزيد أصحابه شروخًا.

وأنا أعود بذاكرتي إلى الوراء يتبين أنني ما زلت عالقة في الخراب الذي أصبح بلا وعي جزءًا من كياني، يبدو إنني كنت أكبر في العمر، أتنقل جسديًا من مكان لآخر، أتقلب بين أحضان الرجال لكني نفسيًّا ظللت طفلة احترقت أمنياتها البسيطة رغم عدم إدراكِ وقتها لمعنى الاحتراق إلا أنني أدركته جيدًا فيما بعد حين تفحم مستقبلي دون أن أجيد إنقاذ نفسي.

حياتي مُختلفة، أو كذلك يعتقد كُل من يعيش هول مآسٍ استثنائية، جوانب عدة جعلتني أشعر بأن حياتي لا تُشبه حيوات من هم في سني، تحليت بثقة مفرطة لأواجه شعور الفقد الذي تملكني تجاه كُل ما كنت بحاجة مُلحة لأجده في حوزتي ولم يحق لي امتلاكه، ألزمني حديث أمي عن الرضا بعطايا الرب لكُل إنسان بالسيطرة على مشاعر الغل والحقد اللذين كانا يتوغلان في كياني كسم سريع المفعول سينهي علاقتي بإله كثيرًا ما رأيته ظالمًا لأنه كتب علينا من المصاعب ما لم نكن نحتمل.

لم أكن طفلة وحسب بل ذات تَفتقر إلى عون الأب، فشلت في الإمساك بدموعي التي كانت تغالبني كُلما سقطت عيناي على فتاة في مثل عمري وهي تزرع أصابعها الخمس في فراغات كف أبيها بعنفوان سُلب مني وأنا أكبر وتكبر معي علامات الاستفهام حول أبي وعلاقته بنا، طرحت على أمي السؤال ذاته ألف مرة:

«لماذا لا نتمتع أختي وأنا بحماية أبي وعاطفته مثل كُل الأطفال مِن حولنا؟»

فيأتي صمتها كرد لا يتغير ولم يكن لدي من الفهم ما يؤهلني لتفسيره بحكمة لكني حين كبرت أدركت أن بين طيات الصمت إجابة غير معلنة كانت تنضح بها الخيبة المستقرة في بؤبؤ عينيها لتقول إن النتائج السلبية لعلاقات حُب المراهقة حين يتزوج طرفان غير مسئولين وليس في حوزتهم أدوات للاختيار السليم عادة يتحملها الأبناء.

وسط سيل الإدراكات المبكرة فهمت أن ما من قسوة تفوق نضوج فتاة بدون أن تحاوطها يد أبيها لتربت على كيانها وهو في طور التكوين، بحثت عن مبرر مقنع لأتسامح مع غيابه رغم حضوره معنا بجسده تحت سقف بيت واحد، لكني لم أجد له عذرًا، تمنيت لو أنه يختفي كليًّا فقد كان يلزمنا حضوره المؤقت الدفاع عن أنفسنا ضد غاراته، من هنا بالتحديد نشأت الصورة الهزيلة التي كونها عقلي عن الرجال ثم دعمتها فيما بعد إخفاقاتي العاطفية، لتحترق صورة كانت مهزوزة من الأساس.

حين نضجت وبلغت أنوثتي أوجها تكّشف لي صعوبة أن تأتي إلى الحياة كأنثى ثم يدفعك المجتمع للتعامل مع ذلك بخزي وكأنك ارتكبتي جريمة لتفاجئني بقدر صعب ومصير قاسٍ يزج بكِ في ماراثون لا ينتهي إلا في حالتين، الأولى سقوطك كجثة هامدة مغلوبة ومستسلمة الروح في الدرك الأسفل من الجحيم لتفتك بآدميتك أرجل عملاقة وكأنك نملة، والثانية أن يصبح الركض أمرًا إجباريًّا للنجاة من السقوط في شراك مجتمع يؤمن أعضاؤه بالله لكنهم لا يؤمنون بالنساء وكأنهن خلقن عبثًا.

شعرت أن كُل الأشياء من حولي لها جاذبية تمنعها من أن تهوي إلا أنا كنت في نظر نفسي خفيفة وهشة كريشة بإمكان نسمة هواء بسيطة التحكم بمصيرها، حتى الأشخاص في حياتي بدوا ثابتين ووحدي من أسبح في فلكهم بلا جدوى. فشلت في وهب جسدي لرجل واحد رغم أن قلبي لم يعرف إلا حبيبًا حقيقيًا وكل ما بعده محاولة للتعويض، كلمة حب خاوية كفيلة لأتنازل ليس فقط عن جسدي ولكن عن كل ما أملك لأي عابر سبيل، لُكل امرأة نقطة ضعف وكان إحساس الأمان هو ما أرجوه دون إلزام أحدهم بمد طرف لسانه لي بوعود، البذخ العاطفي والتضحيات الرهيبة ربما كانوا في طياتهم خدعة اللاوعي لتأكيد جحود الرجال وتأكيد صورة أبي الهزيلة من خلال كل رجل أعرفه.

2

حين كُنت صغيرة وغضة جدًا، كنت مثل كُل الأطفال أفتقر إلى أدنى مُعدلات الفطنة التي تؤهلني لاستيعاب تَضارب الأحداث مِن حولي برصانة غالبًا يكتسبها المرء بتقدم العمر وخبرات جِد عميقة، ورغم ذلك استمررت في مُراقبة الأفعال الصادرة عن الجميع بعقل شديد الاشتعال بالغ الحدة وسلوك هادئ جعلني أجيد تفسير الهفوات بذكاء.

من خلال مخزون الذاكرة أستعيد الطريقة المضطربة التي فتنتني بشخصية أبي، وكيف كان لا يأكله نفسيًا إحساس الذنب تجاه أسرته بعد استمراره لسنوات عدة في إضرام الرُعب فينا بشتى الوسائل على غرار سفاح متمرس يجيد تعذيب ضحاياه بضراوة.

كَان جلوسه مسترخيًا فوق الكرسي الخشبي البالي بملابسه الداخلية بيضاء اللون في وضع القرفصاء وهو ينفث منتشيًا دخان سيجارته إلى أعلى

وكأنه انتهى للتو من مهمة لا قيمة لها إلا في نفسه الوسخة، واستعداده لمخططات تعذيب أمي، يثير بداخلي تجاهه شعورًا غير مبرر بالاحترام الذي لم يكن جديرًا به. تحملت أمي قهرًا مضاعفًا عن الذي عانيناه بانسياقها المنهزم خلف ظُلمه دون شكوى وكأن ما يلحقه بنا من ضرر حقه وليس من شأننا الاعتراض، تأكدت من ذلك حين بدأت أتردد على الكُتاب لحفظ القرآن، فقد كان الشيخ «حسن» يتحدث عن طاعة الوالدين التي هي سبب قوي ليوفق الإنسان في حياته، داعمًا كلامه بحديث شريف يقول: «أنت ومالك لأبيك».

لذلك بدت أفعال أبي أمرًا عاديًّا يجب عليّ قبوله برضا حتى وإن دعوت الله سرًّا أن يكف أبي عما يفعله بأمي حين ينتصب بجسده النحيل بغته ناظرًا إلى جسدها بقماءة مثيرة للرعب متجهًا إلى فرشة النوم فتهم بدورها مذعورة لإخراجنا من الدار وتتبعه كثور ربط منذ زمن في ساقية ولم يعد بحاجة إلى مزيد من التعليمات ليفعل منه ما ظنه مصيره المحتوم وواجبًا لا بد من تأديته ولو على مضض، حالة كسوف تصيب وجه أمي الطيب ليتوارى خلف باب الدار المتهالك وهي تغلقه بخجل رويدًا رويدًا حتى تغيب عنا نهائيًّا، في الخارج أجلس أنا وأختي متجنبتين التحديق إلى وجهينا متصنعين اللامبالاة حين يأتينا الهواء محملًا بتأوهات مضاجعة أبي الحيوانية متواشجة مع شخرات وألفاظ بذيئة تنبئ بأن ما يمارس في الداخل فعل يحمل طابع العراك وليس طابعًا حميميًّا.

الآن وأنا أستحضر أبي بعد أن كبرت أراه إنسانًا بدائيًّا، يجهل الكثير عن

الحُب الذي ينشأ أولًا في الروح وبناءً عليه يشعر المرء بالمتعة حين يصل إلى الجسد، واكتشفت أنه ليس الرجل الوحيد الذي يحركه إلى جسد امرأة رغبة في تلبية احتياجات جنسية عمياء ممتزجة بحب للسيطرة والانتزاع اللذين يضمنان له نصرًا مزيفًا لرجولة مختلة عبر هزيمة جسد تحته.

أصابتنا البلادة واللاجدوى تجاه الكرة التي تُعاد بصفة شبه يومية أمامنا، ولأنني كُنت أصغر أعضاء البيت وأقلهم إلمامًا بالمسميات كان خوفي مضاعفًا بشأن انفتاح الباب ذات يوم لنجد أبي يركل جسدها المتهاوي باستخفاف معلنًا لنا نبأ موتها بين يديه من فرط انتهاكه لإنسانيتها، روعتني فكرة موتها وحيدة دون أن تمد لها إحدانا يدها الصغيرة دفاعًا عنها أو على الأقل أن تستجدي أبانا بدمعة ليعتقها.

بعد أن كبرت وأصابتني حمى الاحتراق النفسي بصمت دون أن أذرف دمعة واحدة سخرت من هوسي بالخوف عليها من القتل لأنه لم يكن بحاجة إلى طرق تقليدية في إبادتها فقد كان يفعل بها ما هو أسوأ حين يضاجعها بعد ضربه لها ضرب العبيد، لتطل علينا من باب جحيم الزوجية مطأطئة الرأس تجرجر جسدها المهزوم بخزي في محاولات فاشلة ألا تصدر أي رد فعل يشعرنا بمعاناتها، فتعود لمباشرة حياتها بادعاءات كاذبة أنها بخير!

بدوره يجعل منها أضحوكة ثم يتسلل إلى الحمام كي يغتسل من خطيئة لم يعترف يومًا بارتكابها، بعدها يقف بكامل أناقته ليعبئ الجو برائحة المسك، بعد التوتر الذي بثه حولنا، استعدادًا لسهرة مسائية عادة ما يعود

منها قرب أذان الفجر مخمورًا. تخيلت أمي بطيبتها أن بقاءه في حياتنا ولو مجرد صورة اجتماعية على حائط أسرة متهشمه أفضل بكثير من غيابه. كانت تقول إن لحضوره بعض المساوئ لكنها اكتشفت فيما بعد أن حضوره كان خاليًا من أي ميزة! فقد ترك بصمات مدمرة فوق كياننا بعد تجرعنا القهر معها بالقطارة.

نقمت على أمي، اتهمتها بأن خنوعها في وجه الظلم دمرنا، حمّلتها مسؤولية أوجاع لم تكن لها يد فيها.

بدت مشاعري تجاهها متأرجحة بين الازدراء والشفقة وكأن عقلي يمشي بحذر فوق خيط رفيع من المشاعر المتضاربة تجاه كل شيء في الحياة. اتبعت اتجاهًا أنانيًّا وأعمى جعلني لا أتعاطف مع تضحياتها، ثم انحدرت باتجاه أقسى جعلني أسلبها ما خصصت بها الظالم، أبي.

حقدت عليها، نعتها بالغباء، فقد كانت تضج بالأمل رغم واقعنا المميت، ليست لديها تطلعات وكيف تسير في اتجاه المستحيل وهي ذات عقلية مسطحة لا تجيد السباحة في آراء ونظريات فلسفية معقدة غالبًا ما تقود إلى الهاوية التي أقف عليها اليوم متجنبة النظر إلى أسفل!

أمي لا تدخن السجائر ليس لديها أصدقاء، لا تعرف شيئًا عن الكحوليات ولا أسماءها هي بالكاد تميز بين ألوان العبوات الصفيح التي يحضرها أبي معه أحيانًا، ليس لديها متطلبات عاطفية أو جنسية، لا تبالي بما حدث في الماضي ولا تنتظر ما سيحدث في المستقبل!

تعلمت من ذلك ألا أكون الشمعة التي تحترق من أجل الآخرين، وإن اضطررت للاحتراق فسيحدث ذلك من أجل مصالحي الشخصية، لكني فشلت في تطبيق ما تعلمته في حياتي الخاصة لاحقًا لأني ظللت أسيرة لنموذجها!

تبخر أبي بشكل درامي لا أستوعبه إلى الآن، خرج من بيتنا ذات صباح ولم يعد، هكذا بمنتهى الهدوء لدرجة أننا ظنناه مات لكنه كان لا يزال حيًّا عرفنا ذلك حين أرسل لأمي ورقة طلاقها يبدو أنه أراد التخلص من كل ما يتعلق بها حتى ثقل اسمها في أوراقه الرسمية.

كم تمنيت رؤيته ولو لمرة أخيرة، مرة واحدة فقط يمكنه بعدها استكمال رحلة الغياب التي بدأها، دائمًا كنت أتخيله يجلس أمامي وجهًا لوجه فأطيل النظر إليه باستهتار وجرأة افتقدتها حين كنا نعيش معًا، أخبره أن العذاب بدأ من بيته ولم ينتهِ بعد، أنني أردت دومًا التبرؤ منه، من حمضه النووي الذي فشلت في سحق تأثيره الوراثي من جسدي لأمحو الشبة الشديد بيننا شكلًا وموضوعًا، أردت بداية جديدة لإنسانة تكونت من نطفة هو مصدرها، حملت اسمه كوصمة عار أراها بوضوح حتى وإن لم يرها الآخرون، طمحت للحصول على إجابة مرضية منه على سؤالي الملح:

«هل صحيح ما كُنت ترد ده لنا في ذروة غضبك وأننا ولاد حرام ولسنا من صلبك؟!»

أمي كانت تؤكد عبر قسمها المستمر بالله رب العالمين أننا أبناؤك ومن صلبك، وأن ما تتفوه به مجرد ادعاءات مجنونة تنتمي لقائمة سلوكياتك المختلة التي ابتلينا بها وبك، تمنيت مقابلة واحدة بيننا لأقص عليك بقلب بارد أدق تفاصيل حياتي الخاصة المخزية، بدءًا من عدد الأيادي التي كورت نهديَّ مرورًا بالتحاميل المهبلية بغرض الإجهاض وصولًا لوقوفي فوق حافة الانتحار وعلى وشك أن أرمي بنفسي في حضن الموت.

سعيت لأذيته بأفعالي لكني اكتشفت أن ليس هنا من يتألم غيري، وأنني صفعت نفسي حين تخيلت أن بمقدوري صفعه عبر تصرفاتي المتهورة وسقطاتي المشينة. لكن هكذا تسير أمورك عندما تكون أولى الخناجر التي صوبت تجاه قلبك من أبيك، فتدرك عمق الجرح الذي ربما تنقضي حياتك وهو ما زال يتسع ليمتلئ الكون بنزيفك، وتسيل دموعك بثورة إعصار وتفشل في إيجاد قشة الغريق الهزيلة.

اعتبرت أن إله أمي الذي قالت عنه رب الطيبين قد خذلها وهو يراها تنهار دون تكلفة نفسه عناء الجود عليها بألطافه الخفية، أصبت بالتباس في أفكاري عن الله تساءلت بحقد: «كيف باستطاعته إخراجنا من الوحل ويرضى بتركنا لنتألم بهذا الشكل!»

لماذا لم ينقذنا من الألم والضياع! فكانت لهلاوسي العقائدية أثر ترك بصمة في شخصيتي إلى اليوم.

حاولت كثيرًا كبح أفكاري الاعتراضية على إرادة الرب بعقد هدنه

مؤقتة مع إله أمي الطيب الذي اتخذت منه سندًا ودرعًا واقيًا تسلحت به في لحظات ضعفي وانهزامي، واتخذت من إله شيخ المسجد سبيلًا لأتحايل على أسوأ الأفعال وأكثرها عهرًا لأننا كنا في رأيه جواريًا تحت أمر سلطة أبي الفاشي طالما أن الأمر يتعلق بكوننا نساء في بيئة تدين الأنثى وكأن الأنوثة كالإصابة بنوع من الإعاقة العقلية، في مرحلة متقدمة من السخط كفرت بوجود إله فتبنيت شعار ماركس عن الدين بأنه أفيون الشعوب، فقد كان مناسبًا لي في تلك الفترة التخفف من أعباء الرقابة الإلهية على أفعالي التي لم أُرِد أن يحجمها قوانين مخالفة لقوانيني الذاتية.

والآن بعد هذا الكم المرعب من العواصف الفكرية التي تخبطت بها أرى أن الله بريء من كُل التهم التي نسبتها إليه، وأن مشكلتي الأصلية كانت مع المجتمع المصاب بازدواجية تدفع كل شخص لصنع إله يتطابق مع الصورة الذهنية التي يتملكها هو.

3

بالإضافة إلى ظروفنا المادية التي تأزمت وأحالت حياتنا إلى كابوس لا يطاق، بدأت أحوال أمي الصحية في التدهور منذ أعتقها سيدها برحيله مما كان يتسبب في نفاد صبري عليها، أصبحت عصبية بشكل لا يطاق أقل حدث يمكنه إصابتها بفوران في أعصابها، بُعده دمرها كنت أعرف ذلك رغم أنها أخفت تلك الحقيقة ولم تعترف بها، تحججت أن رحيله سيكلفها مشقة تحمل نفقات البيت بمفردها!

استنكرت في قرارة نفسي مدى تصديقها لما تقول! وسذاجتها التي تهيأ لها أننا سنقتنع بهذه الكذبة المقدمة لنا كمبرر لحالة التلاشي التي تسير نحوها بخطى ثابتة، سيان عندي حضوره أو غيابه خاصة فيما يتعلق بمسألة الماديات، بل بالعكس تخيلنا أختي وأنا إمكانيه تحسن الأوضاع بعد خلاصنا منه نهائيًّا لأننا لن نضطر للملمة الملاليم التي كنا نلتقطها من تحت حذائه كُل بضعة أيام والتي كان مصدرها عمل أمي لكنه كان يستولي عليها

بالإكراه ثم يعاود الجود علينا ببقاياها كنوع من الصدقة التي يتبعها مَنٌّ وأذًى لا حدود لها.

تضاعف كلام أمي في تلك الفترة عن حجم المسئولية الذي تضاعف بعد أن أصبحنا نعيش في دارنا بلا رجل!

وهل كان للبيت رجل آخر غير أمي!

سخرت من هبلها الذي دفعها لتصديق كذبة لا وجود لها إلا في عقلها لكني تعاطفت مع قصور قدراتها العقلية في التغلب على الفجوة الساحقة بين ما تتخيله وبين ما نعيشه في الواقع.

في رأيها أن رعاية سمعتنا هي أأمن المسالك لتمضي سنواتنا القادمة بأقل خسائر ممكنه وليتغير مسار حياتنا للأفضل، تأثرت أختي بكلامها فقد كانت كلتاهما تتمنيان لنفس الفصيلة الواهمة، فاعتزلت كل ما هو خارج عن حدود الدار بما فيها التعليم الذي رأت أنه لن يضيف شيئًا لحياتها في المقابل بل الأفضل لها توفير نفقاته لشراء أغراض الزواج لتصبح مستعدة في حالة حصولها على عريس الأحلام الذي كان مجيئه وفقًا لأمنيات أمي دربًا من دروب الجنون!

ما من ميزة واحدة تؤهلنا لنكونا موضع طلب للزواج، فقط نمتلك قصة كفاح ابتذلنا روايتها كي نستدر عطف العابرين مقابل معونة مادية، نظرات الشفقة التي يرمقنا بها الجميع كانت تشطر كرامتي نصفين لكنها كانت تحمل لأمي ترضية تناسب شخصيتها، امرأة قروية يفصلها عن

جوهر الواقع أميال من الانحدار جعلتها لا تتخيل طمع النسبة الأكبر من الرجال فينا أكثر من كوننا فتاتين محترمتين سيتهافت علينا الشباب لقصة كفاحنا التي تكشف لي أنها لا تعني أحدًا بقدر ما كانت تعني لنا.

تاقت نفسي لتُبدل الأدوار حتى وإن كلفني الأمر تكبد مصاعب جمة، أعددت نفسي لدفع أي ثمن مقابل الحصول على لحظة واحدة أستمتع فيها بكوني الطرف الذي يمد يده ليعطي لا ليأخذ. لعبت الشعارات دور هام في تكويني لذلك تأثرت بما قرأته على صور المدرسة بخط أحمر عريض: «بالعلم والمال يبني الناس ملكهم» فأصررت على إكمال تعليمي الذي رأيت فيه خلاصي الوحيد، أقنعت أمي بأنني لن أحملها ثقل أحلامي بل إنني سأعمل من أجل توفير مصروفاتي الدراسية، عزمت ألا أستسلم لرفضها واستمررت في إقناعها بعد كُل رفض أتلقاه منها بحجة ما سيقوله الناس عن الطفلة التي خرجت لتعمل بعد أن أصبحت بلا أب.

أنا آخر العنقود وغزالة أمي الشاردة التي تفعل ما يحلو لها منذ نعومة أظافرها، سأمي من نصائحها الخاوية دفعني للتمرد عليها بشراسة، حاسبتها لأول مرة على اختياراتها التي أوصلتنا إلى وضع متدنٍّ، اتهمتها أنها سعيدة بالتعاطف الذي يصلنا على هيئة صدقات تدفع لنا مقابل أن يشعر الآخرون بقوة الخير التي تتفاقم في نفوسهم ونلهث نحن وراءها بلا كرامة. نظرت إليّ طويلًا وقالت: «افعلي ما تريدينه».

علقت نظرتها في ذاكرتي وظلت تطاردني لسنوات شعرت خلالها بالذنب مما قلته لأنني فيما يبدو قتلتها بعنف، فمنذ ذلك اليوم ورغم حصولي على

موافقتها فإنني لا أتذكر أنها كفت عن البكاء المتوجع. كانت فطرتها السليمة كأم تتنبأ بما ينتظرني من مصير مشؤوم مثلما ينتهي الحال بكل المتمردين.

غفوت ليلتها وأنا أتخيل أنني سأصبح في خلال سنوات معدودات امرأة ذات شأن، ستقف فوق مسرح لتحكي قصة كفاحها كطفلة بدأت رحلتها كموظفة في محلّ بقالة يبعد عن بيتها بمسافة كيلو متر تسيره على أقدامها يوميًّا، لصاحبه عم أمين الذي رحب بعملي عنده بعد أن رشحتني له فتاة تسمى «زكية» لم يكن هذا اسمها الأصلي ولا أعرف من الغبي الذي أطلقه عليها! لكني أخمن أن العجوز من لقَّبها به. كانت تكبرني بست سنوات، لم تكن صديقتي لكني كنت أختلس الكلام معها بعد تحذيرات أختي لي من الاختلاط بها، فقد كانت تروى عنها حكايات مشبوهة، صحيح أنها مبالغ فيها بشكل لا تصدقه طفلة في صغر سني مما جعلني لا أنصت لنصائح أحد وبقيت على تواصل دائم معها، لكني تأكدت فيما بعد أن ما وصل خيال أهل البلد به عن أفعالها كان أقل عهرًا مما يحدث في الواقع.

• II •

«اقتلعنـــي مــن جــذوري رغــم أنــه رجل أربعيني امتلك من التجربة ما يؤهله لإدراك حقيقــة أن الأزهــار حين تقطــف تموت».

"العجوز"

«إلى أن يتعلم الأسد الكتابة ستظل
كل القصص تمجد الصياد».

"مثل إفريقي"

1

كانت العطلة الصيفية التي تستمر لمدة ثلاثة أشهر فرصة عظيمة يتوجب عليَّ استغلالها بطريقة مُثلى للحصول على أكبر قدر من المال الذي يعينني على تسديد مصاريفي المدرسية ومستلزمات الدراسة بالإضافة إلى مشاركة أمي أعباء احتياجاتنا الأساسية من مأكل وملبس.

كانت فترة الدراسة مزدحمة ما بين ذهابي إلى المدرسة صباحًا واجتهادي في المذاكرة ليلًا مما يعيق إمكانيتي للتوفيق بين العمل والدراسة في آن واحد. غرقت في التفكير لإيجاد مخرج آمن للتخلص من شبح تَركي للمدرسة الذي ظل يطاردني لمدة فصل دراسي كامل تدهورت خلاله قدرتي على التحصيل مما تسبب في تراجع مستواي الدراسي بعد أن أصبحت مصابة بالهم والحزن لدرجة تمنعني من الإمساك بالكتاب لمدة عشر دقائق! ضغوطات أمي كانت تزداد لأعمل كخادمة دائمة في إحدى بيوت المدينة مثلما كانت

تعمل هي قبل زواجها بأبي بالإضافة إلى ضغوط مستمرة من جهة العجوز لإقناعي بالتفرغ له ولو ساعتين يوميًا فقد كان على يقين أنني لا أملك من الاختيارات ما يؤهلني لرفض عروضه المغرية التي تساعدني في تحصيل مبالغ من النقود.

اتفقت مع أختي أنها أولى بقبول العرض الذي تقدمه أمي والتي كادت أن تجثو على ركبتيها لإحدانا كي تقبله وكأننا أمام معجزة لن تتكرر في العمر مرتين! تحججت لأختي أنها ليس لديها ما يجبرها على التواجد في البلد مثلي بعد تركها للتعليم وتفرغها التام للأعمال المنزلية لتتولى دور أمي عقب مغادرتها للبيت صباحًا وتغيبها لمدة لا تقل عن عشر ساعات نجهل خلالهم أي أخبار عنها إلا التي ترويها لنا بعد عودتها مستهلكة.

قديمًا كان أبي يكمل عليها بالضرب تارة والمضاجعة الحيوانية تارة أخرى وأحيانًا كثيرًا كان يفعل الاثنين معًا، ناضلت من أجل منع حمل جديد فقد رأت أن ساحة بيتنا لا ينقُصها مزيد من الضحايا!

في ظل ظروف مادية متأزمة بدت حبوب منع الحمل رفاهية لا تمتلكها مثلنا من النساء فكانت تصنع بنفسها محلولًا عبارة عن خليط من الخل والماء الساخن كنت ألاحظ استخدامها له أثناء اغتسالها بعد مضاجعة أبي لها بالإكراه.

ندمت أمي على محدودية رؤيتها حين قررت ألا تنجب أكثر من طفلين، صرفت انتباهها عننا وتابعت:

«إنني كنت بحاجة لابن يتولى المهام التي تنصل منها أبو كما بعد أن ألقى بلحمه عرض الحائط ورحل، سند لي ووليّ لكلتاكما في عقود النكاح».

تفسيري الوحيد لترديدها هذه الجملة النابعة من احتياج لسلطة ذكورية هو اعتيادها على وجود أبي المدمر الذي أصابها بمتلازمة العبيد والتي في تشخيصي كانت بحاجة ضرورية لإعادة تأهيل نفسي تتعلم من خلاله كيف بإمكانها الانخراط في حياة هادئة خالية من حضور رجولي طاحن لأنوثتها بإهانات بذيئة قطعًا لا تتناسب مع امرأة حرة لكنها بدت مناسبة تمامًا لأمي.

لتتفهم وضع شخص واختياراته التي هي من وجهة نظرك خاطئة يتوجب عليك أولًا أن تحيا حياته، هذا بالفعل ما أقتنع به اليوم بعد سنوات عشتها وأنا مستاءة من سلبية أمي المفرطة ومقاومتها المستميته للخروج من دائرة الحُزن بعد تحررها من استعباد أبي لها، توقفت طويلًا متأملة موقفها حين تضاعف مقدار العذاب في حياتها بعد غيابه وتفهمت كيف تتلاشي الضحية حين يتوقف الجلاد عن إيذائها.

يلتمس بعض البشر في هذا النوع من الارتباط المؤذي مقدارًا من الأمان الذي لا يحصلون عليه في حالة البقاء وحيدين، مما يفسر استمرار علاقات مدمرة بعد أن يتحلل الحُب بفعل التصرفات التي تنكشف بالعشرة ليس فقط من أجل ما يتبقى بين الرجل وامرأته من روابط اجتماعية لأن الإنسان كائن متمرد حتى لو تخيل أنه أكثر هشاشه من القيام بثورة تغيره يعلن من

خلالها تمرده على شريك حياته لكن يبدو ذلك مستحيلًا بالنسبة لمن لا يحتملون العيش في هدوء الوحدة، فيتعلقون بحبال شريك مشاكس.

أبي كان بلا أدنى فائدة في بيته، اجتهدت أمي لتحويله من رجل عاطل لآخر يعمل كأي أب وزوج محترم. اعتقدت أن ما يفعله معنا بسبب الفراغ الذي يعيشه وأن بمجرد انشغاله بهموم العمل لن يتبقى لديه وقت وطاقة ليفتعل مشكلات معنا. بعدها ستتغير حياتنا للأفضل.

لم يخدعها، تزوجته على وضعه وكانت تعرف أن ثمة خللًا متغلغلًا في أسلوب حياته تقبلته على أمل تغيره، لكنها تعلمت من تجربتها التي دخلتها وهي مفعمة بالرجاء وخرجت منها مدحورة ومدركة أن لا أحد يتغير إلا إذا أراد هو في قرارة نفسه إحداث تغير بحياته، وهو كان رجلًا كسولًا ليس لديه استعداد لبذل مجهود طالما أنه يحصل منها على أي مبلغ يريده وهو جالس فوق مؤخرته، يتركها تطحن من قبل أصحاب البيوت اللاتي تعمل فيها، فمن الطبيعي أن يرفض الفرص التي جلبتها له كحارس عقار بعد المرة التي أغراه فيها الراتب ويوم الإجازة الذي توافق مع إجازة أمي الأسبوعية، تخيلنا هذا اليوم سيصبح ملاذنا للاستمتاع بتواجدنا معًا كأي أسرة طبيعية، لكننا ظللنا لثلاثة أشهر لا نراه.

2

المرة الأولى التي وطئت فيها قدماي دكان عم أمين كانت أمي هي من أوصلتني إليه بناءً على طلبي قبل توجهها هي أيضًا إلى العمل. كُل المناظر الاعتيادية للوجوه الكادحة والنخل السامق والطرق التي تضج بالبشر في ذلك الصباح لم تكن تشبه نفسها من قبل وكأن الحماس الذي يركض في عروقي وأنا أسير متحرجلة إلى حياتي الجديدة قد أضاف سحرًا إلى لوحة استعادت ألوانها المبهجة التي بهتت لفترة تحت تأثير اليأس.

تركتني أمي عنده كأمانه بعد أن أوصته عليَّ، بدأ العجوز في شرح المهام التي سأتولاها وهي أنني سأساعده في تجهيز طلبات الزبائن، وترتيب البضاعة فوق الأرفف الزجاجية عندما تأتي السيارة من المصنع ف بداية كل أسبوع. نبرة صوته الحازمة أشعرتني بقيمتي التي أصبحت في نظري لا تقل عن قيمة أي إنسان بالغ، لأنه تعامل معي في البداية بحدة لا تتناسب مع طفلة في سني!

الانطباعات الأولى التي نأخذها عن الأشخاص خداعة، فكُل شخص مجهول ربما يكون مشروع جحيمك إلى أن يثبت بأفعاله العكس. فبعد فترة كشف لي العجوز عن وجهه الأصلي وطبيعة عملي عنده والذي كان نقطة تحول خطرة من كوني طفلة بريئة إلى خنزيرة متشبعة بالنجاسة.

رغم علامات تقدم السن التي كست وجه العجوز قمحي اللون فإنه كان رجلًا وسيما بغض النظر عن أسنانه المتهالكة والتي كان قد نخرها السوس بشكل مزرٍ، لذلك السبب كانت ابتساماته القميئة تثير بداخلي شعورًا بالغثيان فقد كانت أسنانه مقززة لدرجة يصعب على من يراها ألا يراوده نفس إحساسي تجاههم، كان عجوزًا متصابيًا زادته نظرات عينيه العابستين جاذبية غالبًا ما يمتاز بها من تجاوزوا سن الأربعين من الرجال، كان يمتلك جسدًا متناسقًا إلى حد ما لكن بعض الدهون تراكمت في منطقة الخصر بشكل ملحوظ، لديه ساقان طويلتان وصلبتان يكسوهما شعر كث كوبر الجمل، وقدمان عملاقتان تتماشى مع يديه الممتلئتين بأصابعهما القصيرة، حاجبان واضحان وشعر قوي كثير الشيب مصفف بعناية لا تتغير تسريحته الدقيقة.

بدت مشاعري تجاهه متأرجحة بين الحب والكراهية وظللت لفترة طويلة حتى بعد تركي العمل عنده مذبذبة وليس بمقدرتي حسم ما بقلبي نحوه، كل ما عرفته فيما بعد أن ما قبلته منه لا يمكنني قبوله مرة ثانية، فقد كان ينهال عليّ بإهانات، نعم اليوم أسميها إهانات تنتمي لمستوي منحط

من التحرشات اللفظية، كان ذلك في البداية وقبل أن تبدأ الحواجز التي فصل بيننا بفعل الفارق العمري الكبير في التلاشي، وأنا أفكر في الستة وثلاثين عامًا الذين فصلوا بيننا حين عقد معي أوسخ اتفاقية عقدتها في حياتي لا يمكنني إلا البصق على ذكرياتي المؤلمة معه، وكيف أن ضميره لم يؤنبه ولو للحظة على كم الأذى النفسي والبدني الذي ألحقه بي دون الخوف من مصيره في الدنيا قبل الآخرة!

ما يبدو الآن واضحًا لي كأشعة الشمس التي يستطيع العالم بأكمله رؤيتها دون عناء أنه لم يكن يحسب حسبان أي شيء ولم تكن للأشياء الخارجة عن إطار جسده قيمة لديه، يموت من يموت ويحيا من يحيا، طالما أنه ينهل من الأجساد البكر ما يبقيه على قيد الحياة متنشيًا وفخورًا برجولته، ويبدو أن كل اللاتي سقطن تحت سطوته كانت جثثًا قد قتلها التفكك الأسري ولم يكن لديهم جرأة للمقاومة، الاعتراض قوة يمتلكها أصحاب البدائل أما نحن ضحايا التصدعات الأسرية فليس لدينا بدائل للبحث عن من يحتوي أوجاعنا النفسية وربما العاطفية، بعضنا يعترف أنه يبحث تحت أسقف بيوت الآخرين عن أب لم يجده تحت سقف بيته وبعضنا لا يدلي بمثل هذه الاعترافات بسهولة.

هربت من نموذج أمي الذي سرًّا أردت ألا أشبهها ويبدو أنني من شدة تركيزي عليه اليوم وأنا أقف وجهًا لوجه أرى نفسي وقد أصبحت صورة طبق الأصل منها، ما الفرق بين صمتها أمام أبي وصمتي في وجه

العجوز؟ لا شيء، كلانا التزم صمتًا مخزيًا هما الأولى به.

استغل العجوز تغيب رقابة أمي والتي كادت أن تكون معدومة خلال ساعات عملها في المدينة، وأن ما من شخص يبقيني تحت السيطرة لقوانين أخلاقية رادعة، فأخضعني بحيله البارعة لتجربتي الجنسية الأولى بالابتزاز والإكراه العاطفي والتي كنت فيها بعد أشعر بالذنب في حالة تمردي عليها، صباحًا حين أصل إلى الدكان كنت أنحني على يده لأقبلها لم يطلب ذلك أبدًا مني لكني كنت أتعامل معه كجارية اشتراها ولا حياة لها بعيدًا عن سيدها، أكسبتني الحياة مبكرًا سلوكًا يتسم بالمازوخية استمر معي في تجاربي العاطفية التالية حتى تمردت عليه لكني أخفقت في التخلص منه بشكل حاسم.

في عينه كنت ألمح استمتاعًا ينعكس لي حين أرفع شفتيَّ من فوق كف يده، وكأنه يشعر في ذاته بالعظمة لإخضاع كائن هش لا يحركه تجاهه إلا شهوة عابرة ولمسات لئيمة قد وهُب له كمقابل لبعض المال الإضافي الذي اعتقدته أمي شفقة ناتجة عن شهامة اضمحلت في رجال هذا الزمن لكنها ما زالت في العجوز. كنت أستمع لكلامها الساذج محاولة أن أظل متماسكة بصرامة لضبط رد فعلي كيلا يظهر على ملامحي إلا اللامبالاة دون مناقشتها في تفاصيل الأمر.

قبلت دور البالوعة لحيوان أربعيني كنوع من الشعارات الهزيلة التي تليق بنضالي، التمست لنفسي مبررات وسيلًا من الغايات النبيلة لا وجود

لها إلا في عقلي المحدود، أما هو فلم أجد لسلوكياته المنحرفة ووقائعه الوحشية معي أي مبرر. فكرت في فضح الأمر لكني حملت هم ما سيحدث لأمي لو عرفت الحقيقة والدروس التوبيخية التي هي أثقل على كرامتي مما بفعله هو بي لأنها ستختم بكلامها عن التضحيات المضفرة بالتعب التي لم أقدرها بفعلتي كما أنني كنت على ثقة أن ما من شخص في هذا البلد البائس سيجرمه وينصفني...

لو أنني أدركت منذ البداية مدلول نظرات الذئب في عينيه، وأن نظراته لم تكن اشتهاء لجسدي بقدر ما كانت تزدريه لما جعلت له سلطانًا على خلية واحدة مني، لو أنني أجد تفسير الرابط الذهني المرعب بين إحساسي تجاه الصورة الذهنية التي تتكون في خيالي عن أمي حين تلبي نداء أبي لدخول الغرفة وبين الشعور القاتم الذي شرع في التكون حول قلبي وتسبب في تجنبي للناس وأهمهم أمي وأصدقائي في المدرسة الذين انفصلت عنهم نفسيًّا بعد أن أسرت داخل تصور محدود عن نفسي التي تدنست بفعل الروتين الرمادي لاغتصابي وأنا أنقاد خلف حيوانية العجوز الهائج إلى المخزن الذي تآكلت جدرانه وتعفنت بسبب الرطوبة، في لحظات الصدق القليلة كنت أعترف لذاتي أن الأمر لا يستحق هذا العناء وخاصة أنني كونت فكرة عن ماهية الشيء الذي لا يمارس إلا خلف الأبواب الموصدة في سرية محكمة وحالة من التكتم المقلق، أدركت آنذاك أنه ليس حبًّا، صحيح لكلمة الحب في بلدتنا حرمانية كفعل مدنس، لكني أدركت أيضًا أن هناك ما يمارس

بالجسد ويسمى الجنس وشتان بين الاثنين وأنهما مختلفان حتى وإن تطلب التعبير عن الحب بعض الأفعال الجنسية فإنهما ليس من منشأ واحد.

يبدو أن الفقر العاطفي الذي عانيت منه بالإضافة إلى صغر سني جعلاني في نظره آلة بدائية من السهل عليه برمجتها ويبدو أنه نجح ولو لبعض الوقت قبل أن أقص الخيوط التي يتحكم من خلالها بي حتى أدرك اليوم وأنا في كامل قواي العقلية أن نيتي الطيبة لم تصلح عملي الفاسد وأنني أضطررت إلى تحمل عواقب الأمر بالإضافة إلى مواجهة نفسي أن ما كان يكنه تجاهي يمكن تعريفه بأي شيء سوى الحب. حين يتعلق الأمر بين الرجل والمرأة بالفارق العمري الذي لا يمكن غض الطرف عنه يمكننا أن نسمي ما بينهم احتياجًا، تأكيد ذات، اعتراضًا من الأكبر سنًّا على فكرة تسرب الحياة من بين أصابعه، لكن لا يمكننا تصنيفه كحب.

ابتدع لي شكلًا من أشكال العبودية من أجل تحقيقه لأكبر قدر من الإرضاء الجنسي لنفسه على حساب اغتيال طفولتي في محاولات متكررة لإقناعي بالجلوس بين فخذيه بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى.

كان عادة يشدني من يدي بحماس ثور هائج ليضم جسدي الذي تجتاحه في تلك اللحظات رعشة تجعلني عاجزة عن مقاومته أو دفعه بعيدًا، لم أكن راضية عما يحدث لكني في الوقت نفسه كنت لا أعترض على ما يطلبه.

قاومت خشونته في انتزاع ملابسي بعنف حتى أصبحت أخلعها من تلقاء نفسي فيما بعد، في مرتنا الأولى التي نزلت معه إلى المخزن أو بيت العنكبوت

كما أطلقت عليه أصبت بصدمة أجهشت بعدها في البكاء حين رأيت قضيبه منتصبًا، كانت الطريقة التي أظهره بها فجة ومريبة، رجل متمرس في الحياة بكُل جوانبها لا صبر عنده لتهيئة جسد قبل استخدامه.

تلك المرة لم يحدث بيننا شيء لأني سارعت بالهرب في محاولة ساذجة مني لعرقلة إرادته، إشارة واضحة استجاب لها بتفتح، أنه عليه التحلي بكثير من الصبر معي كي يحصل على ما يريده حتى لا تتسبب ضغوطاته في هروبي منه إلى الأبد، بدأ في إهدائي الكثير من الملابس كما أنه اشترى لي أحمر شفاه كان يضعه لي أثناء تواجدنا بمفردنا في المخزن، حينذاك سعدت وأنا أرى تفاصيلي الطفولية تتبدل إلى تفاصيل أنثوية لامرأة ناضجة، جهلت أن تلك السعادة ستخفت بفعل الإدراك الذي سيتسع مع الوقت بأن طفولتي قد اغتيلت على يد أنانيته، كثيرًا ما كُنت أتأمله قبل وبعد اغتياله لجسدي حين يحشر قضيبه المجعد كقطعة من اللحم النيء بالعنف في فمي ويأمرني بلعقه والتدرج في سرعة الحركة، كانت ملامحه تتبدل لأنه في الطبيعي لم يكن وجهه ينضح بالشر الذي يكتسبه فجأة في تلك اللحظة.

3

كنت أتأمله بعد إفراغ شهوته وهو ملقى فوق الأريكة المصنوعة من خشب الأرابيسك ككلب عجوز لم يعد يقوى على النباح كسابق عهده، كان يعرف كل شيء عني وعن حياتي لكنني أجهل عنه كل شيء تقريبًا إلا التفاصيل المبعثرة التي يرويها لي كأحجية يتوجب عليَّ جمع أجزائها المرة تلو الأخرى لأستنتج حكاية ربما لا يكون لها صحة من الأساس، دفعني أسلوبه الغامض لاستخدام عقلي بقوة أستطيع من خلالها تفسير كل ما يقوله، وفي كل مرة كنت أظن أنني أقترب من حقيقته أكتشف أن هناك هوة ساحقة من التجارب وفارقًا عمريًّا كبيرًا يفصلني عنه!

رغم أنه كان أبًا فإنه ظل يضخ سمومه النفسية على هيئة نصائح خاوية قضت عليَّ وعانيت بسببها تخبطًا واضطرابًا.

حفر بداخلي فكرة مغلوطة أو بالأحرى فكرة ملوثة عن الإنجاب، رمقني محدقًا ثم قال:

«الإنجاب جريمة».

لم ينتابني أدنى شك تجاه ما قاله، آمنت بجملته دون تفكير في مدى صحتها وتبنيتها كقناعة مسّلم بها لها مردود شرس على نفسيتي الهشة، تضاعف ذلك الإيمان تحت حرارة الهزيمة العاطفية الأولى.

أدركت في وقت لاحق أن ثمة جرحًا هائلًا في أنوثتي التي خُدشت مبكرًا، كان بمثابة الدافع لدعم فكرة زرعها العجوز بداخلي عن الأطفال، في مساء اليوم الذي سمعت فيه تلك الجملة منه فشلت في أن أغفو لأستريح قليلًا من صداها داخل عقلي، أردت استخدام النوم كوسيلة هرب من صداع شديد، جلست على الأرض بينما الجميع نائمون وشددت ركبتي على صدري وأنا أتآكل نفسيًّا.

عاديت رغبتي الفطرية كامرأة للأمومة بعد أن فشلت في كبح الشخصية البديلة التي ظلت تتسارع مع شخصيتي الأصلية لتدحضها، عانيت آنذاك حالة من الاغتراب النفسي تلاشى خلالها تدريجيًّا شعوري بالسلام الداخلي وازدادت الأفكار المجنونة عن انعدام قدرتي لإلحاق الأذى عبر ولادتي لكائن غض ليس بإمكاني ضمان سعادته لآخر يوم بعمره. أن أنجب طفلًا يعنى الإقحام بكائن لم يختر وجوده داخل حياة أفرضها عليه فقط لأني أريد ذلك لتلبيه رغباتي بأنانية، وربما يظل يسعى طوال الوقت لإنهاء هذا الحدث السخيف بعد إرغامه على التواجد فيه عندما كان في علم الغيب مسلوب الإرادة وحين كبر وأصبح الأمر بيده قرر وضع نهاية لما فرضته أنا والقدر عليه!

الحياة كما الحب ليس بها ضمانات كي نراهن على سعادة أبدية نهديها لأطفالنا، كل ما نملكه توفير ما بوسعنا كي نجنبهم سير حياتهم في دوائر مفرغة من التعاسة، أن نحارب معهم ضد الأفكار الموبوءة التي يقذفها الغرباء في عقولهم بغرض تدميرهم والإطاحة باستقرارهم النفسي بطريقة يسهل بعدها انتزاعهم من جذورهم الطيبة بلا رحمة وتحويلهم إلى نباتات شيطانية.

في بداية علاقتي به كنت أتصبب عرقًا بين يديه وأزداد شحوبًا بعد كُل مرة ننزل فيها معًا إلى المخزن، لا يعنيه من أمري إلا ما يحصل عليه مني، وقد كنت طفلة مطيعة رهن إشارته، يفعل ما يريده بي ثم يعود بعدها لحياته الطبيعية وبيته لا مباليًا بحالتي الصحية التي تتدهور بعد أن أصبحت أعاني من نزيف شرجي كنت بسببه أتخلص كما علمني من ملابسي الداخلية بكيس أسود ألقيه بمحاذاة أي جدار وأنا في طريق العودة إلى البيت خوفًا من تطلع أمي بالصدفة على آثار بقع الدم وتعرف طبيعة علاقتنا التي أتقاضى عليها نقودًا.

قبل أن تكسبني العادة التي استمرت سنتين جرأة رهيبة في التعامل معه، كنت من شدة رعبي لا أنبس أمامه بحرف واحد حين يضربني بعنف أو يمارس معي أشياء أعترض عليها بيني وبين نفسي دون تصريح بذلك، أنكفئ بعدها في بطء حتى يلاصق جسدي الجدار المقشر وكأنني أرتمي في حضن الجمادات لتحميني. لكني بفعل ما تكرر حدوثه بيننا كبرت لدرجة

اتخاذ قرار حاسم يليق بتطوري أن أضع بيننا حدودًا أحمي بها نفسي من أذيته سواء بالتطاول اللفظي أو بممارسة أفعال جبرية لا أريدها.

انزلقنا معًا أكثر من مرة في شجار أدى إلى انفجاري في وجهه بالشتائم والتهديدات التي لم يتوقعها أبدًا من قبلي بعد أن تعرضت منه للنصب كنوع من الحذاقة التي يمارسها على طفلة أعطى لنفسه حق انتهاكها بالسعر المناسب لدناوته الذكورية. أثناء بعض الليالي التي يرفض فيها إعطائي أجري مستخدمًا الحجة الواهية أن ما بيننا حُب والحب فعل لا يتقاضى عليه الإنسان أجرًا، كنت أخيرًا قد مللت من ادعائه الحب للمرة المليون، بعد اكتشافي أنه يستخدم كلمة حب لاستغلالي جنسيًّا كي أعطيه نفسي بطيب خاطر، فأكتفي بالسكوت بعد أن أسخر منه بداخلي لأنه لم يكن موضع حب بالنسبة لي، حتى في المرات القليلة الذي تحرك في قلبي شعور رقيق تجاهه كنت أعترض بقسوة طريق هذا الإحساس لأني أدركت أن حبي امتياز لا يستحقه. أتظاهر أمامه بالاقتناع التام مكتفية بالاختفاء بعيدًا عنه ليومين حتى يشتد عليه الهياج الجنسي فيرسل «زكية» محملة بالهدايا وتوصيات مشددة بأن تحضرني معها بعد إقناعي بالعودة إليه لأتفاهم معه بهدوء وأنه في النهاية سينفذ لي كل طلباتي.

اكتسبت ثقة مفرطة في إمكانياتي الجسدية التي كانت لا تزال لم تنضج بشكل كافٍ لإثارة رجل، توهمت أنني أمتلكت العجوز المريض الذي يسيل لعاب شهوته على جسدي البكر واعتبرت نفسي فرصة ذهبية لا يمكنه

إفلاتها من حياته بسهولة فالدور الذي كنت أرتضي به لم يكن بالسهولة التي تتيح له إيجاد بدائل متعددة.

الواقع كان مختلفًا تمامًا لأنه هو الذي بمقدوره سحق روحي تحت حذائه متى أراد، عرفت الصبر في أبشع أشكاله حين قطب حاجبيه ورمقني محدقًا:

«لا بد أن تختاري يا صغيرتي بين الحب والمال، لا بد تسمية ما يحدث بشكل صحيح لنضع الأمور في نصابها».

وهمني كلامه بحرية الاختيار التي لم أمتلكها، وكأنه يجهل أن الحُب رفاهية حين يوضع في الكفة المقابلة للمال الذي يربط حصولي عليه بإمكانية استكمال حلمي، تجلت سادية تصرفاته في استمتاعه بتخبطي النفسي ودماري الذي أصبح نتيجة حتمية لإحداث تفوق قدرتي العاطفية والنفسية التي لم أكن بمستوى النضج الكافي لتحملها، وكلما قدمت تنازلات زاد مقدار النقود التي سأحصل عليها في المقابل، أقنعت نفسي أنني أمارس نوعًا من التجارة الرابحة، أبيع الشيء الوحيد الذي أملكه وأسوِّق له بذكاء دون المساس ببكارتي الذي سخر العجوز مني حين سألته:

- هل الرجال ليس لديها شرف لأنهم لا يملكون غشاء بكارة!

- شرف الرجل ليس في فرجه، بل في فرج كل امرأة تحسب عليه.

- أنا أحسب على أبي؟

- شرفه بخير طالما أن بكارتك لم تتأذى.

هكذا أقنعني أنه ليس بمقدار البشاعة التي أتخيله بها لأن ضميره لم يسمح له العبث بمستقبلي فحافظ على ماء وجهي أمام الرجل الذي سينام معي للمرة الأولى. كان ماهرًا في تحقيق أكبر ربح لنفسه بأقل ثمن فكانت تلك حجته الجديدة التي لم تحمني من التعرض للنصب بشكل آخر، فبعد ذلك الحوار بالتحديد أصبح يعطيني مبالغ أقل بكثير من المتفق عليها، بحجة أنه لا يحصل على كُل ما يحصل عليه رجل من جسد امرأة!

كان مأخوذًا بالأداء الاستعراضي لأبطال الأفلام الإباحية التي أشاهدها معه أحيانًا معتقدًا أن بإمكاني اكتساب ثقافة جنسية تفيدني في المستقبل من نساء تلك الأفلام اللاتي يصرخون بطريقة مبالغ فيها لم تقنعني أبدًا مثله! لكنه كان يريدني أن أكرر ردود أفعالهن وهو يمرر لي قنبلة فحولة مصطنعة تتسم بالعنف والإباحية. حين كبرت فهمت أن العملية الجنسية مختلفة تمامًا عن أفعال العجوز الذي يستمدها من تلك الأفلام، لتلامس جسدًا بكفاءة أنت لا تحتاج خبرة فالأجساد تتقن التعامل بعضها مع البعض بالفطرة، انتابتني تجاهه حالة من التقزز الرهيبة التي يعقبها تقلبات في معدتي أدت لتبدل أسلوبي معه بشكل فج بعد شطب لفظ الحب من علاقتنا غير السوية. الرداء الذي كنا نستتر به ما يحدث خلف مسميات أقل جرأة كانت تجعله لا يبدو في نظري بالبشاعة التي أصبح عليها فيما بعد وكان أيضًا يجعلني أخلق لما يحدث مبررات ولو وهمية. سكنت جراحي النفسية والجسدية باستمراري في إقناع نفسي أن ليس فيما يحدث أمر خادش لكرامتي وألزمت ذاتي التخلي عن حساسيتها المفرطة ما دفعني لعزل نفسي بين ما أشعر به

وبين ما هو طبيعي أن أشعر به حتى انعدمت قدرتي على التواصل مع مشاعري في المواقف بشكل متزن.

لم يكف القدر عن وضع عقباته التعجيزية في طريقي وكأن المعاناة هي الدرب المسموح لي بالسير عليه، تدهورت معاملته لي بشكل مستفز لاستسلام حواسي المستباحة بعد يقينه من افتقاري لخطط بديلة تغنيني عنه وأنني أصبحت تحت سيطرته لدرجة لا يمكنني بعدها ابتزازه.

في المرة الأخيرة التي اجتمعنا فيها، كنت قد سبقته وتبعني إلى الأسفل. أمرني أن أستعد، كنت أشعر بالارتباك كما أنني كنت في مزاج سيئ عانيت بسببه خمولًا وثقلًا في جسدي كله. سمعت صوت خطواته تأتي من خلفي فاضطررت لسحب سروالي القطني المزين برسومات قطط حتى نزعته، هرعت مندهشة من رد فعله المفاجئ بعد إذعاني له وانحنائي إلى الأمام متكئة على يد الأريكة، ركلني بقدمه إلى الأمام، لهنيهة شعرت فوضى تجتاح أفكاري التي تحاول استيعاب الخطأ الذي ارتكبته دون عمد وأتتني الركلة كعقاب عليه! بدأ يصرخ كالملدوغ بعد أن دعس بطني عدة مرات ظل يتحرك بجسد نصف عارٍ في أرجاء المكان بعشوائية غير مبررة، صمت للحظة ثم عاد يهذي وهو يرتدي ملابسه الداخلية على عجل. سحبني من شعري بوحشية بعد تعثري بالدرج حتى وصل بي إلى باب الدكان ودفعني إلى الخارج قائلًا:

- طالما أنك بلغتِ الحيض لا عمل لكِ عندي في دكان أو فراش.

أصابني الجمود وتسمرت في مكاني وكأني أتحول لتمثال حجري بعد أن تبدل الحدث السعيد في حياة أي فتاة طبيعية إلى تعاسة لا حدود لها في حياتي الملعونة، بحدسي أدركت أنه يتكلم بجدية وأن ما يقوله لا ينتمي لهلوساته المعتادة التي كانت بالنسبة لي أمرًا روتينيًّا لكني صُدمت أمام نذالته غير المتوقعة والتي جعلته يبدو في عيني يومها كدمية محروقة.

قررت تجنبه تمامًا لأيام حتى يهدأ، انتظرت أن يرسل إليَّ هداياه مع مرسال الغرام لكن الصمت تمدد بيننا بشكل ضاعف ألمي النفسي لأن في هذه المرة لم يأتني من طرفه أحدٌ!

انتهت دورتي الأولى في اليوم الخامس بعد أن أصبت بالحيرة بعد فشلي في إيجاد طريقة أستطيع من خلالها وقف الدماء المتدفقة مني بغزارة. لمت على الله وعلى مفاجأته غير السارة التي أتعثر بها كُلما تخيلت أنني سأرتاح لفترة، قالت أمي إنه يجب عليَّ الاغتسال كالتالي:

«امسحي نصفك الأيمن ثلاثًا ثم نصفك الأيسر وانطقي الشهادة بنية التطهر حتى لا تلعنك الملائكة».

لم تشغل تفكيري ملائكة أمي التي كنت في الواقع أنا من يلعنهم ولا يفرق معي إن كانوا يلعنوني أيضًا أم لا.

دخلت الحمام وتجردت من ملابسي غسلت كُل أجزاء جسدي بالصابونة التي اشتراها لي العجوز وأمرني بفرك أعضائي جيدًا بها لأنه يهتاج من

رائحتها، ارتديت بعدها ملابس نظيفة معطرة ثم سرت في الطريق إليه، كنت كلما تقدمت خطوة في اتجاه الدكان أشعر أنني لا أسير علي قدمي بل على قلبي.

ليس بوسعي تصديق ما وجدته، استغنى عني بسهولة في أقل من أسبوع! وأحضر للدكان ضحية جديدة بدت أصغر مني في العمر، وجهها غير مألوف لي مما يعني أنها غير مقيدة في مدرستي، فكرت في الاقتراب منه بكرامة مبعثرة.

صرت مشتتة تمامًا ومتحيره ماذا سأفعل!

سأراقبه، ظللت لساعات أسترق النظر من بعيد بغرض التأكد من انعقاد الاتفاقية نفسها مع أخرى. ليتني لم أفعل! تأكدت حين أطفأ النور بغرض إخراج الذباب من الدكان. تمهل لربع ساعة ليثق أن ليس هناك من يراه انسحب إلى الداخل واختفى وهو يشد الباب الجرار إلى الأسفل.

سرت في طريق العودة إلى بيتي مهزومة كشخص قد طعن في عمق أمنياته وتم التنكيل بأحلامه.

ليلى انسي الأمر!

انسي أنه أوجد لكِ بديلًا، جسدًا جديدًا سيقتات عليه لفترة ثم يطيح به في مزبلة الذاكرة مع خروج أول قطرة دم منه.

توقفت ساخطة أتأمل الظلال المشؤومة للأشجار التي كانت ترقص

مبتهجة وأنا في طريق الذهاب أما الآن فقد ارتدت حدادها للتو!

«لماذا يا الله؟ قل لي ما الحكمة من وراء ما تخطه يدك لي! أهذا عدلك! أهذه رحمتك! لست حجرًا يا الله أتسمعني!»

لا بد أن تجدي مخرجًا، بابًا تدخلين من خلاله إلى عالم جديد بعيد عن العجوز، أرضًا تشرق فيها الشمس يوميًّا، لتبلغيها، لا يكفي جلوسك فوق سجادة صلاتك لساعات مثل أمك، مبتهلة إليَّ لأبدل الأمور للأفضل، أنا أرسل رحماتي كهدية مرات معدودة وليس للأبد، إن كنتِ تبحثين عن فرج حقيقي فتشي عنه، ابحثي عن الباب الذي بمجرد وصولك إليه ستكونين قد قطعتِ أكثر من نصف المسافة لحياتك الجديدة.

راودني صدى عميق لأفكار انتحارية بإلقاء نفسي في الترعة لأترك جسدي الذي نجسه العجوز يتلاشى لكني قلت بنبرة غاضبة والدموع تجري على وجهي:

«قلب أمي سيهترئ لو أصابني مكروه».

فقدت اتزاني فسقطت على جانب الطريق المظلم كامرأة أصابتها أعراض الشيخوخة أفكر في الصفعة القاسية التي تأذيت منها دون أن تدري أمي والآن ستكتشفها بسهولة لو رأتني وأنا في قمة انهياري أعاني من الظلم الذي وصل لقمته دون أن يهتم العجوز بمدى الدمار الذي ألحقه بكائن هش مثلي لا يمتلك خبرة لتفادي بشاعة الخبرات الجديدة والمؤلمة في آن واحد.

بدأت أرتعد، لا يمكنني تقبل ما حدث دون التحدث فيه مع أحد، شرعت أمشي من جديد متوجهة إلى دار زكية، إنها الوحيدة التي تعرف طبيعة علاقتي بالعجوز كما أنه من المؤكد هي من أحضرت له الفتاة الجديدة.

قرعت الباب وإذ بها تفتح ثم تبتسم بخبث قائلة:

«أنتظرك منذ أيام».

سترت شعرها الذي كان مكشوفًا وخرجت معي لنتحدث في الأمر دون أن يسمعنا أحد.

استولى الحزن عليَّ:

«عندك علم بما حدث؟»

«نعم، لقد حدث معي قبل سنوات».

فقدت أعصابي وتوقفت محدقة:

«لماذا لم تخبريني؟»

«هو طلب مني».

«وأنت ليس بإمكانك رفض أوامره!»

عبست منزعجة من طريقتي الوقحة معها:

«لا تنسي نفسك. ليست إحدانا أفضل من الأخرى».

زممت شفتي وقلت:

«أنا في مشكلة حقيقية أرجوكِ ساعديني!»

تفحصتني ببرود:

«بإمكانك أنتِ أيضًا إيجاد بديلًا له، لكن حتمًا ستتغير الشروط».

«بمعنى؟!»

«يمكنك أن تعملي معي، لكن الرجال الذين ستقابليهم منذ اليوم نوعية جديدة مختلفة عن العجوز، أكثر جرأة وتطلبًا لكنهم أسخى منه يدًا ويدفعون لكِ مقدمًا، لكنك ستضطرين للتخلي عن عذريتك يا حلوة».

انقبض قلبي فقد كانت تلك التضحية التي تطلبها مني بعيدة كل البعد عن تفكيري. شيء في قيمي يرفض أن أصبح مثلها تراجعت لثانية أهمس لذاتي مرة أخري بجملتها:

«ليست إحدانا أفضل من الأخرى!»

رفضت عرض زكية، شتان بين من تنازل مرة وبين من أصبح التنازل عنده أسلوب حياة، شيء من الاستخفاف برفضي كان يطل من عينها، اقسمت بألا أعود إليها مهما أشبعتني الحياة ضربًا.

في ذاك اليوم بالتحديد تنازلت عن أحلام اليقظة التي كنت أستدرجها لبلًا كنوع من تدليل الذات في ظل واقع بائس، شعرت بالخطر يهدد طموحاتي

التي ألقت بها الظروف على فراش الموت بغرفة الإنعاش في انتظار معجزة إلهية تنجيها. اعتبرت أن أحلام اليقظة خلال هذا التوقيت الحرج رفاهية يجب الاستغناء عنها ضمن قائمة الأشياء الطفولية التي أجبرتني الحياة على التخلي عنها الواحدة تلو الأخرى.

أحيانًا يأتي الخلاص متأخرًا في وقت قد أصبح القفص الذي كرهناه واقعنا الذي نعيشه ودائرة راحتنا التي لا نريد الخروج منها.

• III •

أتعجب لحال النخل، كيف يقف شامخًا في وجه العاصفة دون بكاء! كنت أحسده لأني لطالما تمنيت أن تصيبني عدوى المخلوقات غير القابلة للانحناء أمام ما يفوق قدرتها.

"المرأة الأرستقراطية"

أي شيء هو أفضل من لا شيء.

"مثل ياباني"

1

تظاهرت أمام أمي بالنعاس خوفًا من تقصيها أسباب الكدمات التي رأتها في جسدي حين كنت أبدل ملابسي، فاضطررت أن أخبرها من تلقاء نفسي أنني تعثرت بحجر وأنا في طريق عودتي إلى البيت، كنت أعلم أنها كذبة ساذجة لا يصدقها أي شخص حتى وإن كان بطيبة أمي، لكن لجأت لها كي أعتم على الحدث بعد فقداني السيطرة على أموري، فأغفلت أنني منذ قبولي بعرض العجوز وأنا لا أتعرى أمامها، تأملتني محدقة.

ساد الصمت بيننا لدقيقة، تفحصتني فيها بعينها كنت خلالها أرتب فراشي بتوتر.

لم أفضِ بأي أسباب أخرى عن حالتي، تسللت بهدوء إلى الفراش الذي ظللت أتقلب عليه يمينًا ويسارًا دون جدوى إلى أن بدأت دموعي تنهال عندما سمعت أذان الفجر الذي عادة ما تستيقظ أمي بعد انتهائه.

انكمشت تحت غطائي في محاولة مني لكتم نشيجي المتوجع، وظللت أتابع حركاتها في المكان من فتحة غير ملحوظة فيه، كان صوت الماء الذي تتوضأ به استعدادًا منها للصلاة موسيقتي الصباحية المحببة والتي أفضل الاستيقاظ عليها لأنه يمدني براحة نفسية تساعدني على استكمال يومي دون شك في توفيق الله لي، لكنها تحولت في ذلك اليوم إلى آلة حادة تشطر ضميري نصفين، سمعت صوت دعائها المعتاد لأختي ولي كانت تتوسل إلى الله بإلحاح أن يسترنا ويبعد عنا أولاد الحرام.

أردت أن أنهض وألقي بنفسي في حضنها الذي كنت بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى لكني لم أستطع فعل ذلك فقد كُنت أدرك الخطر الداهم من وراء تهوري. تحدثت مع الله حول مدى رضاه عن ما حدث أمس؟ ترجيته بألا يهتك الستر الذي تطلبه لنا أمي منذ سنوات، ليس من أجلي، فقط من أجلها هي، طلبت منه الوقوف بجانبي في الأمر الذي لا يتمكن عقلي من تحمله حتى وإن كان الخطأ الذي ارتكبته في حق الجميع وأولهم نفسي عظيم. مسحت دموعي بسرعة قبل أن تأتي أمي لإيقاظي حاولت التغلب على غصتي مرددة: «ستنقذني دعوات أمي كما تفعل دائمًا».

نهضت لتناول الفطور معها كي لا أتأخر على غير عادتي فتشك في أمري، ترددت قبل أن أخبرها بتركي العمل عند العجوز بعد محاولاتي المستميته كي لا تلتقي عيوننا، قلت لها بحزم:

- لن أذهب إلى الدكان مرة أخرى.

- ماذا حدث؟

- لا شيء، سأبحث عن فرصة أفضل.

أتى تذمري كرد موحد على عرضها المتكرر لاصطحابي إلى عم أمين لتفهم السبب الحقيقي وراء حالة الانقلاب من تمسكي المبالغ فيه بالعمل عنده إلى زهد تام في العودة إليه حتى وإن انطبقت السماء على الأرض.

لم أقلق بشأن ذهابها إليه من خلف ظهري فقد كُنت واثقة أنه أجبن من الاعتراف بأفعاله الحيوانية معي، لكنني كنت على يقين أنه لن يمرر الفرصة في حالة ذهاب أمي إليه دون اختراع أسباب وهمية ليلصق بي جرائم سلوكية من نوع آخر كالسرقة مثلًا، ليبيض وجهه أمامها ويظهر بشكل ملائكي حتى وإن كان على حساب حسن ظنها بتربيتي.

ألححت على أمي بأن توصي أحدهم بإيجاد فرصة مناسبة لي كخادمة في إحدى بيوت المدينة وإخطارهم أنني مقيدة في مدرسة إعدادية مما سيتطلب مني تخصيص ساعتين يوميًّا للمذاكرة وإجازة أثناء فترة الامتحانات.

حرية الرفض رفاهية لم أمتلكها مما دفعني لقبول أول عرض على مقاس شروطي التي أخبرت أمي بها، أهمها ألا يكون في البيت الذي سأعمل به رجال.

أتذكر انبهاري بمدينة المنصورة حين خطتها قدماي للمرة الأولى وأنا بصحبة أمي، ورغم عقدة الخوف التي رباها لي العجوز فإنني أحسست

براحة بعد إغلاق الصفحة القديمة حتى ولو دفعت ثمن ذلك البعد عن أمي والعيش في بيت كل علاقتي بأصحابه العمل الشريف.

كان مدخل الزواج مناسبًا لإقناع أمي بالرضا عن تلك الخطوة دون جهد، في حقيقة الأمر لم يكن إقناعها بأي شيء أمر مستحيل، كل ما كنت أحتاجه القليل من الإصرار والكثير من تضخيم النتائج قلت لها إنني آجلًا أم عاجلًا كنت سأخطو تلك الخطوة لمساعدتها في مصاريف زواج أي منا في حالة حصولها على عريس مناسب، كما أنه من الذكاء استغلال مرور السنوات بشكل جدي ليس فقط من أجل توفير مال لدخولي الجامعة التي أحلم بها ولكن أيضًا لشراء بضع قطع من الذهب نتباهى بهم أمام الناس، أو ربما بيت.

بدأت رحلتنا منذ اللحظة الأولى التي ركبنا فيها السيارة الميكروباص متوجهين إلى موقف طلخا، جلست بجوار النافذة التي سربت إليّ هواء منعشًا جعلني أنتشي وأنا أنظر إلى المنازل والأراضي الزراعية وهي تمر أمامي بسرعة مجنونة. تطلب الوصول للبيت الذي سأعمل فيه ركوب مواصلة أخرى، أخبرتني أمي أننا سنقطع المسافة المتبقية سيرًا، رحبت بالفكرة لأنها فرصة رائعة كي أشاهد المدينة وشوارعها على مهل وبسرعة أقل من التي تمر بها الأشياء وأنا بداخل السيارة. شعرت بسعادة كالبرعم الذي يتفتح وأنا أنسلخ عن جلد الفتاة القروية الكئيبة إلى أخرى تجتاحها الدهشة وكدت أطير من شعور الخفة التي انتابت جسدي وكأنني سأتحول لعصفورة تتأمل البراح غير المعتاد.

نظرت إلى أمي وسألتها بفضول:

«الذي يمر من هنا فرع دمياط أم رشيد؟»

نظرت إليَّ في بلاهة غير مصطنعة وقالت وهي تسير:

«بحر، لأن الشارع الموازي يطلقون عليه شارع البحر».

أخذت أردد باستغراب:

«بحر! بحر!»

إجابتها تسببت لي في التباس فقد درست أن الذي يمر بمدن الدلتا نهر النيل وأن مصر تطل على بحرين فقط، المتوسط شمالًا والأحمر شرقًا، فيما بعد أدركت أن أهل المدينة مثلنا نحن القرويين يطلقون كلمة بحر على أي مجرى مائي.

كان الشارع بالنسبة لي مفعمًا بالحياة وبدت كومة الناس في نظري أحياء وحقيقيين وهم يقفون منتظرين المعدية، أمسكت بذراع أمي متوددة إليها أن نركب المعدية لكنها أفلتت يدي مطلقة ردها الاعتيادي السخيف الذي يأتي كمماطلة على طلب لن يتحقق:

«إن شاء الله».

تجهم وجهي ولذت بالصمت إلى أن وصلنا لبداية شارع بورسعيد بازدحامه الصباحي والذي يأتي كمقدمة سيئة لمدينة فاتنة، فسلكنا طريقًا أطول لكنه أقل ازدحامًا، مررنا على فاترينات العرض لشركة بيع المصنوعات

التي مثلت لي وقتها أعظم مول تجاري بداخله كل ما أحلم باقتنائه، مرورًا بسينما النصر التي سرحت وأنا أتخيل أنني أدخلها ممسكة بيد الرجل الأول الذي سأحبه حين أكبر قليلًا وأكون مؤهلة للحب. سنجلس معًا في الصف الأخير غير مكترثين لنظرات المتلصصين والغيورين الذين يعرفون بوعي نوايانا الخبيثة في اختيار ذلك الصف بالتحديد، لذلك لن أعترض وهو يتسلل كلص لسرقة قبلة مني أو لاقتحام حميمي بنزق.

انتشلني صوت زعيق أمي من خيالاتي، أمرتني بالإسراع حتى نصل في الميعاد كي نظهر لهم قدرتنا على تحمل المسئولية. حذرتني من إفلات طرف ثوبها الأسود كي لا أتوه في شوارع لا أعرف بها أحدًا. آنذاك كان تمثال أم كلثوم الشهير قابعًا في الميدان المقابل لمحطة القطار، وفي الجهة الأخرى من الميدان موقف سيارات بيجو أو سبعة راكب كما أخبرتني أمي وهي تسحبني خلفها، ولجنا في شارع طويل مزدحم بالناس والسيارات قالت أمي: «هذا اسمه شارع السكة الجديدة».

ابتسمت حيث أنني اعتبرت الاسم نذير خير بالنسبة لي بعد هروبي من حياتي وسِكتي القديمة. سرت خلف أمي في الزحام كمن يسير فوق حواف ترس يدور بأقصى سرعة مما يتطلب مني مواكبته بكل ما في جسدي الهزيل من طاقة.

وصلنا أخيرًا إلى محل إقامتي الجديد، ركبنا المصعد الخشبي بصحبة البواب الذي أغلق الباب ثم ضغط على زر الطابق السادس، بشكل هادئ انسحبنا إلى أعلى وكأننا نعرج إلى السماء.

2

دق البواب الجرس رغم أن باب الشقة كان مفتوحًا على مصراعيه، خلع حذاءه ودخل أولًا ليخبر صاحبة البيت بأننا قد وصلنا، خرج بعد أقل من دقيقة وانتعل حذاءه من جديد، أذن لنا بالدخول ثم انصرف، انطلقنا أنا وأمي إلى الداخل حافيتين. لم يكن هناك إلا امرأة كهلة في نحو الستين إلا أنها ما تزال محتفظة بجمال آسر استعصى على الزمن المساس به، سمينة تغوص باسترخاء في داخل كرسي فخم، ترتدي جلبابًا منزليًّا بلا أكمام مما كشف عن ذراعين وافرتي اللحم، مسدلة شعرها البني شديد النعومة والخفة على الجانبين بشكل جذاب، ألقت أمي عليها السلام، فرحبت بنا بمطة باردة لشفتها قالت: «تفضلا».

جلست أمي على الأرض في حين اخترت الجلوس فوق كرسي بمحاذاة المرأة صاحبة البيت.

ظللت أستمع إلى حديثها المتحفظ الذي يوضح الفرق الشاسع الذي يجب إدراكه بين من هم على شاكلتها ومن هم مثلنا.

ثرثرا حول بلدتنا وظروفنا الحياتية والتي رغمًا عن سوئها صممت على استكمال تعليمي، شعرت بالفخر الشديد والمباهاة بعد أن أبدت المرأة الأرستقراطية إعجابها بإصراري الذي قالت عنه إنه نادرًا ما يتواجد في فتيات القرى. انتابني الذعر حيث أوصتها أمي عليَّ استعدادً منها للرحيل، أمرتني بسماع أوامر صاحبة البيت وعدم إحداث أي مشكلات أو ضرر، هززت رأسي موافقة لم أنبس بحرف بعد احتباس صوتي في حلقي، بدأ وجه أمي يتقلص بشكل مخيف وهي تحتضنني مرتعشه، لن أكذب كان هذا العناق الأخير الذي شعرت تجاهها فيه بالفخر واستنشقت رائحتها بداخل صدري للاطمئنان قبل أن أتقزز منها وهي تضمني بلهفة في زيارتها اللاحقة، في انتظار لحظة انصرافها بفارغ الصبر كي أمحو باستخدام معطر الجو رائحتها الكريهة التي تنضح بها مسامات جلدي والتي سعيت للتنصل منها بشكل قاسٍ دون وعي من أني أبتر جزءًا مني.

حاولت المرأة الأرستقراطية امتصاص رعبي في الساعات الأولى لي ببيتها، طلبت مني ببشاشه التجول في البيت بحرية لأتعرف عليه.

كان بيتًا قديمًا واسعًا، سقفه مرتفع، ومكون من طابقين يربطهما درج خارجي، وتجويف داخلي يشبه الشرفة في الطابق العلوي يسمح بالتواصل بين من هم في الطابق العلوي بالسفلي والعكس.

الطابق الأول متعدد الغرف، من بينهم غرفة نوم المرأة الأرستقراطية التي تمتاز بالفخامة، مكونة من سرير كبير ودولاب بني مقابضه نحاسية وتسريحة عليها مستحضرات مستوردة للعناية بالبشرة مكتوب فوقها بلغة أجنبية، وكان معلقًا على الحائط تابلوهات الكانفاه التي قالت إنها اشتغلتها بيديها، ملحقة بشرفة تطل على الشارع مرشقة بأحواض زرع فخار بها نباتات الفل والياسمين والورد البلدي.

الصالة شاسعة بها ثلاثة نوافذ عالية مطلية باللون الأخضر الغامق لا يغطيهم ستائر، وسجاجيد ممتدة فوق أرضية من البلاط القديم وأثاث منجد بأقمشة فاخرة صدمت المرأة الأرستقراطية وهي تسمعني أطلق عليه «نوبيليا» وفي محاولة دؤوبة منها لتعليمي المصطلحات الصحيحة للأشياء أخبرتني بصوت رقيق:

اسمها «meuble».

نطقت الكلمة بسلاسة تتناسب مع امرأة تعلمت اللغة الفرنسية منذ زمن في مدرسة الراهبات. علاوة على ذلك سعت لتصحيح نطقي لكثير من الكلمات أهمها «أنتَريه»!

بالبيت ثلاثة حمامات الأول لها والثاني للضيوف والثالث للخدم، بالإضافة إلى مطبخ متهالك في نهاية الصالة نادرًا ما يستخدم في شيء آخر سوى غسيل الصحون والأواني، فقد كانت ترسل لها ابنتها طعام الغداء بالتناوب مع زوجة ابنها، أما يوم الجمعة فقد كانت تشتري طعامًا من الخارج بالتليفون.

أما الطابق الثاني فكان شبه مهجور لا يصعد إليه أحد إلا في حالات نادرة عادة ما تكون لتخزين أغراض ليس لها أهمية في الطابق السفلي كقطع أثاث بالية، مراتب قطنية متآكلة، زجاجات فارغة ومواسير صدئة بأحجام مختلفة.

كنت أمقت الصعود إلى أعلى حين تأمرني هي بذلك، غالبًا كنت أتوقف أثناء صعودي ثم أستأنف والرجفة تسري في جسدي فقد كان يضج عقلي بقصص وأساطير الفلاحين الخاصة بالعفاريت والأشباح.

لم تكلفني في يومي الأول إلا بأعمال بسيطة لتحررني من انطوائي وانغلاقي على نفسي. في الليل طلبت مني أن أحضر مرتبتي الصغيرة وأضعها بجوار فراشها وقالت:

«التفي جيدًا بالغطاء يا ليلى».

استمتعت بسماع اسمي منها، بلا ألقاب إضافية تلقيها في وجهي بسادية ولا إذلالات وكأني عبدة عندها، ولا حتى تشبيهات مهينة بالحيوانات.

شعرت للمرة الأولى أن لا بيت آخر لي إلا ذلك البيت وكأنني ولدت فيه، أردته أن يصبح قاعدة أساس لمستقبل يسير في اتجاه معاكس لمنوال حياتي، أليس في النهاية بيتنا هو المكان الذي نشعر تحت سقفه بالدفء والأمان العاطفي؟ وأنا حظيت باستقرار لا مثيل له بين جدرانه في ظل تقدير بالغ من قبل المرأة الأرستقراطية، الوحيدة التي جعلتني أستشعر الجمال في اسمي.

تشكلت في عقلي نظرية تخص الأماكن أخفقت في طردها من عقلي تنص على أن ثمة شيئًا غامضًا ينتقل كالعدوى من أرواحنا إلى البيوت التي نسكنها، لعنة خفية ستمررها إليك الجدران، بصمة وجدت أثرها واضحة على أمي تقول إن ذلك البيت كان مفعمًا لأصحابه بالحب والبركة وأتيت أنا الآن لأحصل على طاقتهم الإيجابية لأتمكن من استكمال رحلتي.

كانت الأيام تمر متعاقبة متشابهة يسيطر عليها الهدوء، لا جديد ينغص صفو حياتي، تشق أشعة الشمس طريقها إلى السماء محيلة سواد وظلمة الليل باحترام دون أن يمس أحدهم خصائص الآخر، تشدو العصافير بمرح وهي تقف فوق الشرفة لتلتقط حبوب العدس التي تأمرني المرأة الأرستقراطية بوضعها من أجلهم كل صباح، لتغادر بعدها محلقة إلى الفضاء الواسع وهي تشعر بامتنان كالذي أحسه تجاه صاحبة البيت التي عادة ما كانت تبدأ يومها عند أذان الفجر مثلما كان يبدأ يومي في بيت أمي مما أشعرني بالألفة سريعًا معها.

أختبرت الرفاهية التي حلمت بها منذ صغري على نحو مفاجئ، وكيف يعيش أبناء الطبقات العالية تفاصيل رغم تكرارها فإنها نابضة بالحياة وكل الوسائل الممكنة لإبقاء شعور السعادة الذي كان مرعبًا لأمثالي، في حوزتهم أطول فترة ممكنة. تمنيت لو أن هذه المرأة الخارقة هي أمي كي لا أصبح مهددة بهاجس فقدان النعيم بغتة مثلما حضرت إليه. لا أصدق! فقد تحولت من مشروع مومس إلى خادمة صباحية ومرافقة لامرأة راقية وطالبة

من منازلهم مثقلة بتحقيق أحلامها بشرف واستغلال الفرصة الثمينة التي أتيحت لها لتنجو من قدر أسود كانت نهايتها فيه حتمًا مأساوية.

توقظني بلطف فأستمرئ اللحظات وأتظاهر بالثقل فلا تضجر أو تعنفني بل تكرر نداءها برحمة، تتكسر حروف اسمي على شفتيها الورديتين وهي تقول بسخرية: «ألم تسأمي من النوم يا كسولة! استيقظي يا ليلى ستضيع صلاة الفجر علينا».

فأتمطع وأعتدل جالسة لأستعيد حيويتي سريعًا قبل أن تلقي عليّ تحية الصباح بروقان:

«Bonjour ma chérie»

في البداية كنت أبتسم موقنة أنني لا أستطيع مجاراتها دون افتعال جهد ما لتفسير ما تقول، بعدها بفترة نظرت إليها باستحياء وقررت أن أصارحها:

«أنا لا أفهم ما تقوليه لي كل صباح».

تطلعت إليّ بشفقة واضحة:

«إذن يجب أن تتعلمي ما أقوله والرد المناسب عليه لنستطيع التواصل معًا بشكل أفضل».

قررت حينها أن أبدأ بمشروع أجبر نفسي فيه على تعلم لغتها بأي طريقة

١١.ـ لأثري كياني وشخصيتي، فاتفقنا أنها ستدرس لي اللغة الفرنسية كل ، م لمدة ساعة بعد انتهائي من المذاكرة وبذلك أكون قد اكتسبت لغة أجنبية ىم التي أدرسها في المقررات الدراسية.

فاصبحت فيها بعد أرد عليها بلسان معوج كما علمتني:

«Bonjour madame»

اشرع بعدها لغسيل وجهي وأسناني على الحوض الخارجي الذي ىم بالقرب من حمامي البلدي المختلف تمامًا عن الحمامين الآخرين ذوي المراحيض الأفرنجي.

بعدها أعود إلى الغرفة لأساعد المرأة الأرستقراطية بالمشي حتى الحمّام لكي تقضي حاجتها بينما أنتظرها في الخارج بعد لملمة فرشة نومي ووضعها في غرفة جانبية تحتوي على كل ما يخصني من أغراض، تنادي عليَّ فأركض عائدة إليها بعد أن تكون قد انتهت وتطلبني لأمسك بيدها فتنهض ببطء خوفًا أن تسقط فأتعمد باستمرار طمأنتها:

«تمسكي بي أنا أسندك جيدًا».

لنعود مرة أخرى إلى الغرفة كي تبدل ملابسها الداخلية، تجلس على طرف السرير عارية، حتى أحضر لها من الدولاب ثوبًا نظيفًا مكويًا بعناية فائقة لأنها لا ترتدي الجلباب نفسه ليومين متتاليين، كما أنها تخصص ملابس للنوم فقط.

تلقيت منها دروسًا جديدة من نوعها بانتباه، وأنصتُّ جيدًا لكل ما تقوله دون مناقشتها بعقل يقظ لأمتص شخصيتها التي طمحت لاكتسابها، فقد كانت حياتها فرصة لا تهدر كي تتعلم منها الفتاة التي اعتادت ارتداء طقم واحد لعدة أشهر وكلما اتسخ غسلته ولبسته مجعدًا، واعتادت أيضًا على لغة الفلاحين وأسلوبهم في الحياة التي تتطابق مع الطرق التي تحيا بها البهائم «مكان ما تاكل مكان ما تشخ».

بنبرة إنسانة تحترم نفسها والغير تطلب مني بذوق إحضار زجاجة ماء الكولونيا الخمس خمسات برائحة الليمون النفاذة ومعها كيس القطن الطبي كي أمسح لها ظهرها قبل استمتاعها بارتداء الثوب المهندم، تجلس أمامي ولا يكاد يغطي جسدها العاري إلا خيط رفيع من القماش الذي يمر بين فخذيها، يبدو أنها تقبلت الجلوس هكذا دون خجل أمام كل خادمة لتأزم ظروفها الصحية وصعوبة حركتها التي كانت عائقًا كبيرًا لاستحمامها يوميًا فابتكرت تلك الطريقة السهلة للاحتفاظ بجسدها نظيفًا.

كانت القطنة تتدحرج فوق جلدها المشدود بانسيابيه وكأنها امرأة في عقدها الثالث، فلا تكف عيني عن النظر لبياضها الثلجي متعجبة:

«كيف استطاعت الاحتفاظ بفتنتها رغم تقدمها في العمر!»

بعد ذلك تخرج من حجرتها بظهرها المحدب متكئة بذراعيها على عكازين معدنيين كانت تعتمد عليهما في ذهابها وإيابها، لتسير في اتجاه كرسيها المفضل فترمي بنفسها فوقه وتبدأ في قراءة الصحف اليومية التي أعطيها لها بعد

أن يعطيني إياها البواب هي وبعض الأغراض الذي اعتاد إحضارها كل صباح، أشير له بأدب كي يتفضل ويستريح من تعب المشوار على كرسي بلاستيكي وضعته له خصوصًا بمحاذاة الباب إلى أن أجلب الطبق الذي أعددته له بحسب تعليمات صاحبة البيت بعد تجهيز صينية الإفطار الخاصة بها ملبية أوامرها بألا تلمس يدي نقطة أبعد من السطح الخارجي لعلب الثلاجة الزجاجية، تضع بنفسها لكل منا نصيبه من البقالة الفاخرة والخبز في طبقين مختلفين بالمناصفة بالإضافة إلى كوب من شاي.

تخبط بكفيها بقوة لأهم بإعادة كل الأشياء التي أخرجتها من الثلاجة إلى داخلها مرة أخرى، بعدها أسرع للملمة الأغراض المتسخة ووضعها في حوض المطبخ استعدادًا مني لغسيلها عقب انصراف الممرضة التي تأتي لتحقنها تحت الجلد بإبرة الأنسولين.

أثناء ذلك تقوم بترتيب قوارير الأدوية فوق الطاولة المستطيلة التي عليها أيضًا علبة مناديل وهاتف لاسلكي أسود ذو أزرار فضية نادرًا ما يرن جرسه قبل العاشرة صباحًا، بينما أنشغل أنا بغسيل المواعين منسحبة من المطبخ إلى غرفة النوم لأشرع في تنظيفها مدندنة أغاني شعبية تشع بالبهجة غير المنطقية بالنسبة للمجهود الذي أبذله دون ضيق وكأني أهتم بغرفتي الخاصة، أطوي السجادة بيدي وأكنس مكانها ثم أعيدها لوضعها مرة ثانية، أزيح التراب عن بقية الأرضية بعد أن أنفض مفرش السرير أو أبدله ثم أرتب الخداديات في الجهة العلوية بسرعة وخفة لأنهي مهمتي قبل

أن يسرقني الوقت فتعلن دقات ساعة الحائط المتدلية في واجهة الغرفة أنها قد أصبحت التاسعة والنصف فأضطر لترك العمل الذي بيدي والركض لاهثة لإحضار وابور الجاز ومساعدة المرأة الأرستقراطية لدفس الكنكة النحاس في نار هادئة بعد أن ترمي بها تلقيمة البن، ونصف ملعقة من السكر ساكبة فوقهما مقدارًا محددًا من الماء، منتظرة حتى تنضج القهوة فتصبها باحتراف في فنجان مرتشفة إياها بمزاج معتدل، بينما أتلكع في تلميع قطع الأثاث الخالي من ذرة غبار لأني أنظفه يوميًا مما يسمح لي بالمكوث أمام النافذة المطلة على الشارع الرئيسي لمتابعة السيارات وهي تتدفق في كل الاتجاهات، والبشر الذين يكتظ الشارع بهم من بينهم من يصيح بالسباب ومن يسري الخدر من عيونهم وآخرين يسيرون في لامبالاة.

ما إن أنهي توضيب الصالة وتنظيف الحمام بالصابون والمطهر حتى أجهز مائدة الطعام واضعة الأدوات المتناسقة في الجهة التي تجلس أمامها صاحبة البيت.

لم يكن مسموحًا لي استخدام نفس الأدوات التي تستخدمها ولم أكن أقاسمها الطعام فوق تلك الطاولة، كانت تكتفي بأن تعطيني مما تأكله لأتناوله وأنا جالسة فوق أرضية المطبخ بأريحية كي لا أخجل من طريقتي الغوغائية في الأكل التي تغيرت بفضل مراقبة طريقتها في تناول طعامها ممسكة الشوكة والسكين بلباقة ليس فقط لتقطيع اللحم بل أيضًا لرفع الأرز بواسطة السكين فوق الشوكة بدلًا من سنده بأصابعها، لأنها لا تستخدم

الملعقة إلا لتناول الشوربة فقط حسب قواعد الإتيكيت.

فترة ما بعد الغداء هي التي أتفرغ فيها للمذاكرة دون أن تزعجني صاحبة البيت بأي طلب يفسد عليّ تركيزي، كانت تأمرني بالدخول في أي واحدة من الحجرات التي تروق لي وإغلاق بابها ورائي كي لا يشتتني الصوت في حالة وجود أي شخص بضيافتها المؤقتة، كان اهتمامها المبالغ فيه بأمري يدفعها للاستفسار بشكل يومي عن ما حصلته من معلومات لتتأكد أنني لا ألهو حين أختفي عنها لعدة ساعات، شكرتها باستمرار على تعاطفها معي فيما يتعلق بتلك النقطة المحورية التي عنت لي الكثير، لكنها كانت ترد عليَّ في كل مرة بحنو بالغ أنها لا تتعاطف معي بقدر ما تساعدني لأني في تقديرها أستحق ما تبذله لأجلي لأنها تريد المشاركة في صنع فتاة استثنائية مثلي، تجاوزت باكرًا هرم الحاجات الأولية مما يدل على انتمائي لفصيلة أرقى من الحيوانات الناطقة اللاتي تتبنى السير في دائرة الاستهلاك.

تزكية عظيمة ظلت ترممني من الداخل بعد سنوات من حصولي عليها، التمست الصدق الذي ينضح من أفعالها لا سيما أنها أصبحت تهديني بشكل أسبوعي قصصًا للأنبياء، والموسوعة الإسلامية للأطفال وقصص شكسبير مثل ماكبث، الليلة الثانية عشرة، عطيل، الملك لير وهاملت، يجلبهم لي البواب في نهاية الأسبوع مع المجلات المولعة هي بتصفحها، وقبل كل مرة تعطيني فيها القصة الجديدة تناقشني في التي قبلها لتثق أن عقلي هضمها بشكل جيد لن ينسيني إياها.

التوقيت الذي يسبق النوم كان سيمفونية رائعة تعمل على دحض الآلام المتراكمة على روحي، أنتظر اللحظة التي ندخل فيها إلى الغرفة ونغلق الباب وراءنا بالمفتاح لتستلقي كل منا على فرشتها ونحن نتبادل الكلام حول كل شيء في الحياة وفي الخلفية يتناثر صوت أم كلثوم الآتي من الراديو المضبوط تردده على إذاعة الأغاني، أحسست أنها تكتشفني من الداخل وتساعدني من خلال طرح أسئلتها المذهلة في تفجير الطاقات التي لا أدري بوجودها في داخلي.

سألتني برفق كمارد سحري:

«ماذا تريدين أن تصبحي في المستقبل؟»

صمت محدقة إلى الفراغ في محاولة لإيجاد إجابة لسؤال لم أطرحه أبدًا على نفسي، أكره الأسئلة خاصة تلك التي تضعني تحت ضغط التفكير للوصول إلى إجابة مرضية، أعطيتها إجابات مشتتة مما أوضح لها مدى تخبطي الذي استشفت من خلاله هاجسي في أن أصبح إنسانة وحسب، أن أتمتع بقدر معتدل من الكرامة بصرف النظر عن نوع المهنة.

في اليوم التالي لهذا الحوار أصرت على تعليمي حرفة يدوية كانت تمارسها كهواية بينما طلبت مني احترافها لتكون في يدي كأداة أعتمد عليها وتسعفني بعيدًا عن الخدمة في البيوت. زرعت في رأسي طريقة صنع غرز الكانفاه بالخيوط المولونية والقطن برليه. استنتجت أن هناك في عقلها هاجسًا يرعبها بأن تموت فتتدهور أحوالي من بعدها، خاصة بعد أن حكيت لها قشورًا تتعلق

محكايتي الكابوسية مع العجوز، أكدت لي أن من قبلي كان لديها جيش من الخادمات ورغم أني أصغرهن فإنني الوحيدة التي اعتبرتها صديقة لها فلقد نضاءل بصحبتي شعورها بالوحدة، فتواجدي بجانبها وشغفي بالحياة أعاد لها إيمانها بأهمية وجودها بعد أن تركوها لسنوات كفريسة للملل ينهش فيها وهي على كرسيها تنتظر الموت، نصحتني قائلة:

«ليس بإمكانك الاستمرار كخادمة حتى وإن صادفتي أصحاب بيوت يعاملونك كابنه لهم، الحياة قاسية، لا تنتظري منها أن تجود عليكِ بالمعجزات، لأن الأحداث السعيدة في حياة المرء عارضة ربما لا تتكرر إلا مرة واحدة في العمر».

3

ظللت أنعم بالرحمة التي زرعها الله في قلبها تجاهي رغم إثارتها حنق أبنائها الذين عبروا عن رفضهم لاستغلالي لها حين يأتون إليها هم وأحفادها في كل نهاية أسبوع، سمعتهم أكثر من مرة ينتقدون الرفاهية التي أتنطع فيها بقبول منها خاصة بعد اعتراضها المتكرر على أوامرهم بعدم مساواتي بهم بجلوسي فوق الكراسي أثناء تواجدهم، أثار ذلك الوضع غير الطبيعي مشاكسات بينهم جعلتها تنفجر ذات يوم في وجوههم بغيظ وهي تهز رجليها في عصبية، قائلة:

«هذا بيتي وأنا الوحيدة التي تحكم فيه بما يروق لها، ليلى لن تجلس إلا بجانبي، وليس من شأنها أن تخدم أحدًا منكم من يريد شيئًا يجلبه لنفسه، لأنها هنا من أجلي فقط».

شعرت بها في تلك الليلة وهي تتألم بصمت بعد ذهابهم ناقمين على

الإهانة التي وجهت لهم بسبب خادمة مثلي يرونها بلا قيمة! عانت بعدها تدهورًا حادًّا في وضعها النفسي الذي أثر بالسلب على صحتها فرقدت لأربعة أيام طريحة الفراش لا تتحرك منه إلا وهي تكاد تجر جسدها بصعوبة إلى الحمام.

لم أحتمل أن أكون سببًا رئيسيًّا لخلافات لن تؤذي أحدًا بقدر ما تؤذيها لذلك قررت التراجع في صمتي لأجعلها تكف عن تمسكها بحصولي على بعض الامتيازات العادية التي كنت في نظر أبنائها لا أستحقها، بعد تردد أخبرتها:

«ليس لديَّ مشكلة في قعدة الأرض، إنني معتادة عليها».

لبثنا صامتتين لحظات طويلة، ظللت ساكنة أنتظر منها أي كلمة لكنها أغمضت عينها بإحكام وملامح وجهها تنضح بالمرارة التي تلوح بثورة في داخلها، عدلت من وضعها لتلمس الأرض بقدميها، مسحت على جبينها ببطء وهي تنظر في اتجاهي بعينيها المتورمتين قائلة:

«أنتِ لستِ خادمة، بل أرضًا صالحة لصدقة جارية أريد الاستثمار فيها».

سخرت لي كل ما تمتلكه لترميمي من الداخل فيما يتعلق بالماضي ولبنائي بحرفية عالية فيما يخص المستقبل، رغم الدائرة المفرغة التي ظلت تدور فيها علاقتها مع أبنائها بسببي إلا أنها لم تأبه بالضغوطات التي كانوا يمارسونها

عليها للتخلص مني أثناء فترات الامتحانات التي أتغيب فيها بالبلد والتي كنت أعود إليها عازمة على إحراق قلب العجوز بتطوري إلى الأفضل رغم عدم تفريطي في خلية واحدة من جسدي، اعتبرت أن ما يحدث انتصار مُرضٍ لنفسي أمام الجولة التي هزمني فيها بجبروته، صممت على المرور بتلكع أمام دكانه ليراني رغم أنه لم يتفاجأ إلا في المرة الأولى التي لمحني فيها بعد غياب دام لشهور طويلة، وبعدها لم يعد يعيرني أدنى اهتمام.

بدا لي أن إفراطه في تصنع الإهمال نجاح في انتقامي منه، بناءً على رد المرأة الأرستقراطية على سؤالي الذي طرحته عليها في إحدى الأمسيات التي أعتدنا بها التطرق لكل المواضيع دون خجل:

«كيف تنتقم المرأة لكرامتها حين يتنازل رجل عنها كالحذاء؟»

«يتآكل كبرياء الرجل حين يرى أن ضحيته تمردت على الدور الذي حصرها فيه».

وأكملت: «إذا وضعك الرجل في سجن، حوليه بذكاء إلى جنة واحرميه دخولها».

دافع جبار تغذّى على إجابتها لمعاقبته بعدم إمكانية تعويض نعيمي الذي حرم منه بسبب أنانيته وبشاعة تصرفاته في حقي، وبأنني رغم طول لساني وسفالتي معه سأظل أرق مخلوقة عرفها مهما بلغت درجة إذعان الأخريات له.

كنت أنهمك بتعمد في حياتي الجديدة كي أنسف إحساسي المتبقي به، لكني فشلت في دفعه بعيدًا عن خيالاتي اليومية وأنا أستلقي على ظهري محدقة إلى السقف كعادتي، شعرت بجسدي متعطشًا ليد تقطفه وهو ينمو كثمار جاهزة للأكل، تشتعل بي رغبات لم تكن من أولوياتي، فرغت كبتي من خلال اصطناع أحلام أتخيل فيها العجوز وهو يتودد ليلتصق بي برفق ويفرض نفسه فوقي بأسلوب أكثر إنسانية وحبًا يدفعني للاستسلام له برضا. لكن سرعان ما أصدم بحقيقته المشوهة التي تحضر في عقلي الواعي بقوة مع نهاية التيار الكهربائي الذي يسري في حوضي مختتمًا بانقباضة ممتعة في الرحم.

اليوم وأنا أتفحص الأضرار التي حقنها بإبرة نجسة في طفولتي أجد أنني تصالحت نسبيًا مع الحدوتة برمتها بعد أن ظللت أصنفها لسنوات طويلة على أنها مصيبتي الكبرى التي لا يمكنني تخطيها بسهولة إلا لو اعترف أمامي بخطئه في وقت لن ينفعه فيه الندم يستدعيني وهو على فراش الموت ليطلب مني الغفران الذي لن أجود عليه به!

يبدو لي كم الهبل والسذاجة الذي تتمتع بها النساء _وأولهن أنا_ حين ينتظرن الندم من رجل فرط فيهن بإرادته! الذكاء يتجلى في عقول النساء اللاتي تتبع فلسفة الضربة المفاجئة، والقلوب التي ليس لها ضمانات أبدية، فتسارع للقفز من فوق أرفف الحب المهمل وتنفض عن كرامتها غبار العلاقات غير المجدية، معترفة أن الصفعة الوحيدة التي يمكن أن تقتل

رجلًا يجب تصويبها نحو كرامته، وحدها الضربات الموجهة إلى القلب تفجع النساء.

تأكدت بعد أعوام من أن تفوقي الدراسي وتقدمي وارتقائي كإنسانه خطوات عظيمة في طريق سعادتي ومستقبلي لكنها لا تمثل شيئًا للعجوز الذي تخطاني منذ اللحظة التي طردني فيها من دكانه وحياته، بدوري كان لزامًا عليَّ تقبل الأمر الواقع بالسعي لمحو تجربته من شريط ذاكرتي وكأنها كابوس انتهى باستيقاظي.

أردت المجد بعد أن بدت الشهادات الدراسية غير كافية لطموحي الذي تضخم إلى الحد الذي جعلني إحدى طالبات كلية الطب، بفضل السنوات السعيدة التي عشتها في ظل دعم المرأة الأرستقراطية. قالت إنني تجاوزت توقعاتها، لم أخطط أبدًا لخطوة مهولة مثل هذه، فقد تخففت من عبء الأحلام الشاهقة منذ زمن طويل حتى لا تضغط عليّ وتدمرني في حالة فشل تحقيقها.

انتابني شعور مرتبك بعد معرفتي بخبر قبولي في كلية الطب، إنني واحدة من أولئك الذين تقلقهم التغيرات الكبيرة في مسار الحياة، رأيت أمي للمرة الأولى تطلق زغاريدها وهي تبكي زهوًا بي أمام ما تفوهت به صاحبة البيت حين وجهت كلامها إليها قائلة:

«ليلى قادت حربًا وانتصرت».

راق لي أنها لم تقل لأمي ابنتك، أنها لم تنسبني أنا ونجاحي إلى أحد فبدوت في عين نفسي فريدة من نوعي.

حسدت من يستطيع أن يفرغ سعادته في شكل قفزات وضحكات مبتهجة لأني كعادتي اكتفيت بالصمت وراقبتهما، كلتيهما تفرحان من أجلي بصدق كذلك كانت عيناهما تقول، كلتاهما تريدان لي السعادة، كلتاهما تحباني. تتبادلان الضحكات والتهاني والتمنيات بحفاوة.

أشبعتني طاقة الحب والأمان فساعدتني لأتجاوز هواجس الخوف من المجهول التي تتسارع في داخلي بعنف، فكرت وأنا أتأملهما كم سيكون جميلًا لو بإمكان امرأتين الزواج وإنجاب طفل لأجد إحداهما أمي والأخرى أبي! جنون! لكن ما عشته في كنفهما كافٍ لأفكر هكذا! لم أرَ فائدة واحدة يجلبها رجل بوجوده إلى الآن.

تحمست للحصول على المزيد من النجاحات بعد أن أصبحت أصب في دائرة أوسع من دائرتي الفردية، أردت وهب أكبر قدر من الانتصارات إلى قلبيهما مهما كلفني الأمر، يبدو أنني كنت جاهزة دائمًا لدفع الثمن بعد استيعابي لفكرة أن كل شيء في الحياة له مقابل.

مضى النصف الدراسي الأول بدون مشكلات فيما عدا بعض الضغوط المادية والتي كانت تحلها المرأة الأرستقراطية في هدوء لتخفف عني الرعب من السقوط سهوًا في الفشل بمجال لمجرد ظني بأنه أكبر من إمكانياتي،

امتنعت عن العودة في الإجازات إلى البلد، بعد أن قطعت علاقتي بها نهائيًا بدخولي الجامعة.

ما إن أوشك الفصل الثاني على الابتداء حتى تدهورت صحة صاحبة البيت بشدة لا سيما أنها بدأت تشعر وكأنها حمل ثقيل يصعب عليَّ حمله في ذاك التوقيت الحرج الذي يتطلب مني الخروج صباحًا والانشغال عن الاهتمام بأمورها مساءً، لم يكن ينقص كاهلي الواهن أي أعباء إضافية، فترة صعبة قضيتها في توتر فقدت بسببه أعصابي واستصعبت السيطرة على انفعالاتي السيئة أمام ملاحقتها الطفولية لي بالنداء والذي اضطررت إلى التغلب عليها في بعض الأحيان بتصنع الصمم لأندمج في مذاكرتي بلا منغصات، أعتذر لها وأتحجج بعد خروجي لاحقًا بأنني لم أسمعها، كانت تسامحني بسهولة لكنها لم تمرر فرصة كشفها لكذبي:

«الإنسان ثقيل».

احتدت لهجتي عليها وتأففت عندما وصلني قصدها:

«ضجرت من الأحمال الثقيلة التي لا تنتهي وكأني نملة ترفع حمل جبل!»

رفعت حاجبيها بذهول لكنها لم تتكلم، بينما نظرت إليها بحقد ثم انسحبت متوجهة إلى الغرفة التي أعطتني إياها في بداية العام الدراسي لأنفصل عنها وأتمتع بأكبر قدر من الخصوصية كي تكون لي مساحتي الشخصية كأي مراهقة في سني.

بدأت تتجنبني كلما حاولت محادثتها، مما أشعرني تجاهها بعد يومين بالذنب الذي يصل للخزي، سعيت لهدم السد الذي يتضاعف بيننا، فسألتها والقلق ينهش قلبي: «يبدو أنكِ متضايقة مما قلته».

حاولت التماسك وهي ترد:

«الوحدة قاتلة، وأنا وحيدة جدًّا ومريضة جدًّا جدًّا، لكن ما يغمني أنني أحمل همك».

حين وجهت عيني إليها لاحظت أنها فقدت الكثير من وزنها بشكل ملحوظ فبدا عليها الضعف، ارتعبت من فكرة موتها التي هاجمتني بضراوة دون مقاومة مني، في محاولة لاستدراك مخاوفي وضعت يدي فوق يدها بحنو وانحنيت أمامها وشهقاتي تتعالى ودموعي تنهمر همهمت بكلمات غامضة جعلتها تسألني:

«هل فزعتي من شكلي إلى هذه الدرجة؟»

لم أجاوبها لأنني لا أعرف هل عليَّ أن أنكر أم أن إنكاري لن يكون سوى كذبة مسكنة ستضاف لقائمة التصرفات المتدنية التي لا تستحقها مني كرد للجميل.

احمرت وجنتاها وسعلت عدة مرات فانقطعت أنفاسها قبل أن تردف بصوت خفيف:

«تأكدي أنني أتفهم المرحلة الانتقالية القاسية التي تمرين بها، وأن ثمة

أمور مستجدة تجابهيها بسبب خروجك من حياة البيت الراكدة إلى حياة ممتلئة بالحركة، لذلك لن أرضى بأن أكون عائقًا إضافيًا في طريقك نحو الحياة التي لطالما حلمتي بها، سأؤمن لكي مستقبلك، هذا ما يمكنني أن أعدك به».

في هذه اللحظة مرت بمخيلتي كل ما ضمنته لي المرأة الأرستقراطية بوجودها في حياتي، والنصائح الممتدة التي وهبتها لي، وكيف كانت يدها واحدة من الأيادي القليلة جدًا في حياتي التي صافحتها بثقة، وأن عملي عندها كان صدفة وجودية غيرت منحنى الأحداث بعد ركضي المشتت خلف ضالتي التي أهدتني إياها فوق طبق من ذهب.

نعقت أفكار سوداوية في رأسي كغراب مشؤوم بعدها أخبرتني أنها ستدبر لي سكنًا في بيت طالبات وتتكفل بمصاريف إيجاره، في رأيها كان ذلك الخيار الأنسب لكلتينا، قالت إنها مضطرة أن تضحي بوجودنا معًا كي نحتفظ بمشاعرنا واحترامنا بعضنا تجاه البعض دون أن تؤذي إحدانا الأخرى بلا عمد، وإنها لا تريد للصورة التي في ذهني عنها أن تندثر وأنا أراها تسير نحو الموت، قالت إنها تنسحب بهدوء كي لا تتركني للحظات ضيقة كفريسة يدهسها الوداع تحت عجلاته المسرعة بعد أن عبرت بي حقل ألغام بسلام على مدار سنوات كيف ستسمح لقنبلة ضئيلة مثل موتها بالانفجار في قلبي!

غشاني الحزن للوضع البشع الذي آلت إليه الأمور بلا سابق إنذار،

روحي كادت أن تحترق وأنا أفكر في السنوات التي قضيتها معها والصداقة التي ربطتني بها، قلبي الذي ظننته استعاد حالته الأصلية قد تفتت بعد أن مسته يد الرب بخذلان جديد، إنني اختبرت الصبر في أبشع صورة، وبعد أن دفعت الخوف بعيدًا عاد لينال من كل ما أحب، وأنا فعلًا أحبها، إنها مثلي الأعلى.

نظرت إليها وقلت بتوجع ينبعث من روح كئيبة:

«ستعاقبيني بالتخلي عني!»

«بالعكس، أنا أهديكِ راحتك، أمنحك سعة العالم لتعيشي، ليكون كل شيء ملكك، الوقت والأحلام والفرح، يجب على أي إنسان أن يختار إحدى الطريقين: طريق الاحتراق من أجل التطور، أو الركود للحصول على الطمأنينة، وأنتِ اختيارك واضح فأدعمه، لذا عديني ألا تتركي شغل الخيط مهما حدث؟»

هززت رأسي وأومأت بالإيجاب بعد أن استطعمت الكلام في فمي فوجدته مرًّا.

طلبت مني إحضار أغراض الخياطة وراجعت معي طريقة صنع أشكال الغرز كما أنها حكت لي عن حوار دار منذ يومين بينها وبين صاحب المحل الذي تبتاع منه الخيوط والباترونات، طلبت منه مساعدتي في بيع كل القطع التي سأشتغلها بيدي.

كنت أسأل نفسي أثناء كلامها:

«ما الشيء الذي سأخافه فيما بعد طالما أن ما يحدث لي هو النسخة الأسوأ من توقعاتي المتشائمة؟!»

لا جدوى من تذمري الذي سيضاعف قوة الانحساب لكنه لن يعرقل قرارها الذي رأته آلأمن بديل لي، لأن سكن الطالبات تحكمه قوانين رادعة لا تسمح بأي مخالفات أخلاقية، استغفرت الله على احتجاجي الذي يحضر كرد فعل أول في المصائب، حاولت على مضض الاستسلام لمشيئته التي أنقذتني من قبل حين لم أكن أتخيل فرصة للنجاة، تردد في عقلي بإلحاح قوله تعالى: (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فهدأت قناعتي بأن كل شر يحمل خيرًا سأعلمه في الوقت المناسب، وأن من واجبي للحفاظ على اتزاني النفسي كي لا أهوي إلى القاع فأرى حياتي تتحطم ألا أحك رأسي بكلمة "لماذا" كثيرًا.

تناولت في استسلام كوب ماء من جانب السرير وقالت كوصية أخيرة:

«يجب على امرأة مثلي سبقتك في العمر والتجربة أن تقدم لكِ نصيحة خذيها على محمل الجد، ربما ما حدث بك في الماضي قدريٌّ وخارج عن إرادتك لكن ما سيحدث غدًا هو خيارك الحر».

طقطقت مفاصل أصابع يدي بدافع التوتر بينما تكمل هي:

«احرصي على سمعتك فهي ثروة المرأة، وهي ما يدفع الناس للاقتراب منها أو الإعراض عنها، طبقي هذه القاعدة على حياتك العامة والخاصة،

السمعة الطيبة هي الشيء الذي سيدفع رجلًا جيدًا نحوك فالرجال لا تضع بيتها في كف امرأة سيئة السمعة لأنهم يبحثون عن أم لأبنائهم قبل تفتيشهم عن رفيقة فراش، والمرأة الملطخة سمعتها لا تصبح مصدر فخر لأبنائها، نحن نعيش على الأرض قانون التسامح الإلهي ليس الدستور الذي تسير أمورنا وفقًا له، المجتمع لا يقبل توبة المرأة هو فقط يوهمها بالغفران، لكنها تكتشف في أول موقف تحتل فيه المكانة الأضعف أن الأخطاء القديمة تستخدم ضدها، وسكوتهم لفترةٍ ما هو إلا انتظار لفرصة مناسبة ليطعنوها في كبريائها، لذلك إن حدث وأخطأتي لا قدّر الله حاولي ألا تتركي دليلًا واحدًا على سقطاتك، لا تعترفي بها من باب الأمانة، فقمة الأمانة أن تستري نفسك، حتى لو تخيلتي أنكِ بهذه الطريقة تخدعين المجتمع لا بأس فليكن، هذا مجتمع مريض ويستحق».

نظرة الحب في أعينها المفتوحة وهي تتفلت مني كانت كافية لأعترف بأهمية الطمأنينة والأمان التي أمدتني بهم، كنت أعرف أن العالم كله لن يغنيني عنها، إنها واحدة مِن يحتاجهم المرء بصفة مستمرة في حياته لشدة إيمانهم به، يشبه غيابهم النزيف الحاد الذي ربما ينجو منه الجسد لكنه يظل يتدفق بغزارة في الروح بفعل الذكريات المشتركة التي لا يسرقها الغياب، مقت الفقد لأنني لم أجرب في حياتي شعورًا طاحنًا أكثر منه.

• IV •

«لأن كُل الذين ائتمنتهم على
قلبي طعنوني من الخلف».

"حُب المراهقة"

«كل امرئ يصنع قدره بنفسه».

"مثل إنجليزي"

1

أثناء الصباح الأخير لنا بين جدران ذلك البيت، كانت كلتانا صامتتين وشاردتين لا طاقة لأن تربت إحدانا على قلب الأخرى ولو بكلمات مرتجلة يلجأ إليها الإنسان في المواقف المؤلمة بعد ليلة طويلة انقضت في البكاء، وجدتني أفر من النظر إلى قسمات وجهها فلم تطلب مني تجهيز الإفطار وكأنها تهيئني للتخلي عن عاداتها مودِّعة العالم الذي أسرني بسحره لسنوات، كنت فاقدة الشهية فانشغلت بترتيب أغراضي داخل حقيبة السفر التي أعطتني إياها لجمع محتوياتي، حاولت ألا أترك مجالًا للتوتر كي لا أفلت أي شيء يخصني وكأني أجتهد لمحو آثاري كليًّا..

ارتديت ملابسي على عجل واستأذنت صاحبة البيت في طلب مساعدة البواب لحمل الحقيبة المثقلة بالأغراض ووضعها داخل التاكسي، رحبت، لم يعترض هو بدوره رفعها فوق كتفه ثم نزل بها إلى أسفل.

استجمعت شتاتي بعد أن كدت أبكي حين تقدمت في استسلام لأودعها لكني لم أسمح لدمعة واحدة بالانفلات من عيني، بذلت جهدًا لأعكس ثباتًا خارجيًا مغايرًا للانهيار الذي يحدث بداخلي، بعدها استدرت لألتقط حقيبة يدي من أعلى الكرسي، استغربت لما اكتسبته من ثقل مفاجئ! قبل أن أفتحها لأفهم السبب سمعت صوت صاحبة البيت وهي تقول:

«وضعت لكِ راتبك لمدة سنة مضاعفًا خمسين مرة، وفتحت باسمك حسابًا جاريًا لتضعيهم فيه، كما أنني استأجرت خزانة حديدية لتضعي فيها الذهب الذي اشتريته بتعبك».

قلت بعد جهد:

«هذا كثير جدًا».

رددت بهدوء في محاولة لكسر الكآبة:

«مهما بدا المبلغ كبيرًا فهو صغير أمام فتاة بطموحك».

اعتدل مزاجي رغم الهزائم التي اعتدت حملها من بيت لبيت ومن شارع لآخر، ابتسمت ثم استدرت قاطعة المسافة إلى الباب وأنا لا أصدق احتكامي على المال الذي سيخرجني من مصاف المحكومين ويضعني في مصاف الأحرار، أدرت المقبض وقبل أن أنصرف ألقيت نظرة سريعة على البيت الذي أهداني أجمل ذكريات حياتي، لم أكن أود الذهاب بعيدًا وخسارة المرأة التي وهبتني فرصًا لا تنتهي للنجاة من الغرق أثناء اللحظة الأخيرة

التي ظللت أراقب فيها حياتي بعجز وهي تترسب كجيفة في القعر، لكن حين يتعلق القرار بها لا تملكه مثل الإقامة في بيت ليس لك تنعدم قدرتك على الاعتراض.

إنني مجبرة منذ أن كنت طفلة تجلس على عتبه الدار مرتابة، أحتاج للشرح للتعبير عن نفسي لتفريغ دمائي لكني دائمًا كنت ألجأ للصمت، إنه لغتي الأم، وعادتي السيئة التي أجبرتني على إظهار عكس ما يكنه قلبي أمام تكرار الأحاسيس باختلاف الأحداث، أجبرت ألا أستسلم وأن أتعامل مع الوقائع كبطلة خارقة القوة لا يستطيع البشر العاديون منازعتها في منطقة نفوذها.

تمنيت لو يمنحني الله قدرة على وقف الزمن الذي كان يمر بدرجة مبالغ فيها أثناء اللحظات التي لا أريد لها الانتهاء، شممت رائحة كثيبة أدركت مع تقدم الخبرات أنها تخص الوداع. للوداع رائحة عطنة، مزيج كريه من رائحة قلب يتعفن وذاكرة تحترق وجسد يتحلل، ونهاية تضعك وجهًا لوجه مع شعور جم بالألم الذي يتعذر عليك وصفه.

ركبت في المقعد الخلفي للتاكسي الذي كان ينتظرني أمام البناية، وبينها كان السائق يتحرك في مساره إلى البنك، احتضنت بحذر حقيبتي التي تحتوي على المال الذي ظننته مفتاح الدنيا، استمررت في إقناع نفسي أن طريقي طويل وأكثر ما أحتاجه الآن التمسك بالأمل بدلًا من التفكير بتشاؤم في أن حياتي ليست إلا اختبارًا مستمرًّا لألم الإقصاء، بحصولي

على النقود لن أضطر مجددًا لطلب الاستغاثة فلا يسمعني أحد وبالتالي ستخلو الضفة الثانية من مستقبلي الذي ستتحول فيه كل الكوابيس إلى أحلام، وكل الأحلام إلى واقع، من أي وداع مبرح لروحي.

وبينما أنا غارقة في أفكاري أفزعني هَدر السواق وهو يقول:

- وصلنا.

طلبت منه أن يركن على جانب الطريق وينتظرني ليأخذني إلى بيت الطالبات بعد الانتهاء من مشوار البنك، أخبرني بألا أتأخر ووعدته لأن التأخير صفة لا تلازمني.

دلفت إلى داخل البناء الضخم المشيد بفنية مذهلة، ابتسمت للحارس الأنيق الذي طلب مني بأدب فتح الحقيبة للنظر بداخلها كإجراء روتيني يمر به كل العملاء.

جلست أنتظر دوري إلى أن أعلن رقمي بالأحمر فوق الشاشة الرقمية فتقدمت باتجاه الشباك الذي يجلس خلفه موظف يرتدي بدلة سوداء وقميصًا أبيض، كان شابًا في نهاية العشرينيات من العمر، ذا وجه حاد وصارم وعينين سوداوين لا تحمل أي تعبيرات، أخذ مني النقود بعد أن شرح لي نوعية الحساب الذي اختارته لي مسبقًا المرأة الأرستقراطية، ترك الأوراق ونهض فجأة باتجاه ماكينة عد النقود ثم عاد بخطوات أقل سرعة، طلب بطاقتي الشخصية وطبع منها صورة ألحقها بالورق الذي وقعت فوقه

وقال بصوت رزين:

«تمام يا أفندم، يمكنك سحب العائد كل شهر».

شكرته وانصرفت إلى ممر داخلي قصير مُتّبعة موظفًا آخر نحيفًا ذا قصة شعر لا تتناسب مع وجهه المستطيل، يرتدي قميصًا رماديًا غامقًا ورابطة عنق حمراء رديئة الذوق، لكنه كان لطيفًا معي. بدا لي صاحب جسد رياضي حين انشغل بفتح الباب الحديدي للغرفة التي بها كم لا متناهيًا من الخزائن بينها وقفت خلفه أتأمل عضلات كتفه البارزة من تحت قميصه الشفاف.

فتح الباب وأدخلني معه، سرنا إلى مكان خزنتي التي تفتح بمفتاحين أحدهما معه والآخر أخرجته من حقيبتي والذي كانت قد وضعته المرأة الأرستقراطية بها.

انصرف بعد أن طلب مني بمناداته فور انتهائي من وضع أغراضي. أخفيت الذهب داخل الخزنة، ثم استأذنته بسرعة في أن يأتي ليغلقها بمفتاحه، أطمأننت تمامًا وشكرته بلهجة مستعجلة لأنصرف كي لا أتأخر أكثر على السائق الذي ظننته يسبني بأبشع الألفاظ في ذهنه.

* * *

سألتني موظفة الاستقبال ببشاشة:

«أنتِ ليلى؟»

اومأت برأسي:

«نعم أنا».

رحبت بي بضحكة خافته:

«الأستاذ رؤوف أوصاني بالاعتناء بكِ بشدة».

كنت أجهل هوية الشخص الذي تحدثت عنه لكنني توقعت أن يكون أحد معارف ابن المرأة الأرستقراطية والذي اعتمدت عليه في تدبير أمر التحاقي ببيت الطالبات بعد ابتداء السنة الدراسية بعدة أشهر حيث أن مثل هذه الأمور المحكومة بمواعيد بدء وانتهاء للتقديم تحتاج إلى واسطة تسهل التحايل عليها.

تظاهرت بالفهم وشكرتها على ذوقها واهتمامها قبل أن تشير بسبابتها في اتجاه الكراسي قائلة:

«ارتاحي إلى أن تأتي المشرفة وتصطحبك إلى غرفتك».

انتظرتها لعشرة دقائق متأملة الجودة المتواضعة للأثاث بنظرات استكشافية فاحصة، والتي عبَّرت دون قصد مني عن رأيي في المكان بوضوح. مما قد يكون تسبب في ارتسام علامات الضيق التي رأيتها داخل عيون المشرفة حين باغتتني بحضورها المتشدد قبل أن أنتبه لأسيطر على تعبيرات وجهي التي تعطي انطباعًا خاطئًا بالعجرفة. شعرت بها على وشك أن تنهرني منذ اللحظة الأولى وأنا أسند يدي بقرف فوق الدرابزين الخشبي المقشر المطلي

بورنيش بني لامع متلكئة في الصعود خوفًا من الترنح على درجات السلم النصف متهالك.

وصلت إلى عالمي الجديد المفروش بأثاث معتق بسيط عبارة عن سرير معدني ذي طابقين ينتصب في منتصف الغرفة مغطى بملاءة بيضاء متقيحة وغطاء صيفي خفيف، على بعد خطوات توجد خزانة ملابس بدرفة واحدة عالق بها من الجهة الداخلية مرآة طويلة ووحدة متوسطة الحجم مكونة من ثلاثة أدراج لترتيب الأغراض بها وطاولة صغيرة بكرسيين يلتصقان بزجاج النافذة المندثرة تحت ستارة خضراء مهترئة من الأسفل، بالاضافة إلى ثلاجة ميني بار ومروحة صغيرة عرفت لاحقًا أنهما إضافات أوصت بهما المرأة الأرستقراطية لراحتي.

عزمت على إنهاء كامل الأعمال المتعلقة بتنظيف الحجرة وإعادة ترتيبها بما يروق لمزاجي لكي تصبح صالحة للمعيشة خلال يوم واحد فقط، ظللت أنظر بتمعن إلى أركان الغرفة غير مستوعبة المشاعر التي تهرب مني كُلما حاولت الإمساك بها لتحليلها، لا أعرف هل يجب أن أحزن لأن مستوى الحياة التي اعتدت عليها على مدار خمسة سنوات قد تدنى إلى الدرجة التي أراها من حولي أم يجب عليَّ أن أسعد لأني لم أتقهقر لنقطة ما تحت الصفر التي نشأت فيها؟!

شعرت وكأنني عالقة في المنتصف ولا حيلة لي إلا الاستمرار في الاختيارات التي يفرضها القدر حتى وإن كانت لا تطاق. لم أتجاوز قساوة الأحاسيس

المضطربة التي ارتطمت بقلبي الهش، لكني عرفت أن ثمة فرقًا هائلًا بين تحمل الآلام ومواجهتها، وأنا ضعيفة للدرجة التي نجح بها الغضب والحزن على تحويلي لحفرة غويطة تراكمت بها كل المواقف المرّة التي مضت من حيث التوقيت لكنها ما زالت تتكرر يوميًا في الذاكرة هي وكل الكلمات التي لسعتني في كرامتي.

في البدء تجنبت الخوض في الأحاديث التافهة التي كانت تعج بالثرثرة والتذمر وتنقلب في النهاية إلى مشاجرات يتراشقون فيها بلغة سوقية ومعايرات فجة. هكذا حاولت الحفاظ على طاقتي من التسرب في أزمات مربكة ليست بأهمية مستقبلي الذي وقف كحاجز بيني وبين الاندماج مع الأخريات في جلساتهن النسائية التي يقيمونها طوال الليل بعد نوم المشرفات وتكون غالبيتها للمشاركة بالمغامرات العاطفية.

انتشلني الطرق العشوائي فوق باب الغرفة من أفكاري، سمعت صوت المشرفات في الخارج وهن يعلن موعد استلام وجبة الغذاء والتي كانت متنوعة لكنها تفتقر للإتقان في طهيها.

أرغمت نفسي على تناول وجبتي وإلا سأتضور جوعًا، فقد كان ثمن الثلاث وجبات اليومية يدفع مقدمًا مع الرسوم الشهرية لإيجار الغرفة.

بعدها خرجت إلى الطرقة الطويلة أبحث عن مياه لأغسل يدي، كنت أتصرف بتحفظ غريب ما زال لم يألف المكان وما ضاعف شعوري بالارتباك التجمعات التي مررت بها أثناء بحثي وحيدة عن الحمامات.

كانت البنات يتبادلن الضحكات والأحاديث أثناء تناولهن الطعام معًا، كن مشغولات بقص حكاياتهن اليومية في الجامعة ما جعلهن غير مباليات بمروري أمامهن أكثر من مرة تائهة، لم تسألني إحداهن عن ماذا ابحث مما أصابني بالملل بعد أن قطعت الطرقة ذهابًا وإيابًا ثلاثة مرات ولم أصل لمبتغاي.

وقفت على بعد خطوات من إحدى التجمعات في محاولة لتبديد خوفي سألت بتردد: «أين الحمام؟»

إحداهن أعارت اهتمامها لسؤالي بعد أن نظرت في اتجاهي وهي تمضغ طعامها بسرعة لتجيبني، مسحت فمها بيدها وقالت:

«في نهاية الممر ناحية اليمين».

تبسمت:

«جزاك الله خير».

أوشكت على البكاء بعد أن أدرت ظهري فسمعت تفننهم في السخرية من ردي الذي اعتبروه تقليدي يليق بمشرفة متدينة قد تجاوزت الخمسين.

اتجهت مهرولة صوب الحمام، المكان الذي يشهد دائمًا على أقسى لحظات انهياري، كان الأمر متأزمًا بداخلي ولا يحتمل مزيدًا من الضغوطات الخارجية. لست حساسة للحد الذي تبكيني فيه تهكمات شخص واستهزاؤه.

اتسعت عيناي من الصدمة حين اعتقدت أنني الوحيدة التي تستنكر

الوضع المزري والسيئ للحمامات التي تفوح منها رائحة البول والعطونة بعد أن كن جميعهن تتحركن في المكان بأريحية لا تنم عن أدنى إحساس بالقرف.

غسلت يدي ووجهي على عجلة بعد انتهاء جولة ندب حظي، خرجت من الحمام بوجه مكفهر عائدة إلى غرفتي الكئيبة. بدأت أعمل على ترتيبها بفتور، كنست الأرض ومسحتها، انهمكت فيما أفعله كي أقطع الطريق على أي أفكار تتناثر في دماغي، انسابت قطرات العرق فوق جسدي بغزارة فقمت بتشغيل المروحة التي داعبتني بهوائها وجففت عرقي، استلقيت على السرير لأستريح قليلًا ثم أعاود لمتابعة أعمالي.

شردت في غدٍ، قلت:

«من حسن الحظ أنه يوم الخميس».

الإجازة الأسبوعية للطالبات، اللاتي عادة ما يسافرن فيه إلى بيوت أهاليهن، لذلك سيخلو المكان من أي إزعاج صباحًا فأتمكن من المذاكرة في هدوء، أما مساءً ستتاح لي فرصة عظيمة للاستحمام بروقان بصرف النظر عن حوض الاستحمام الضيق الذي أكله الصدأ والذي سأعتبره أفضل بمراحل من العودة لاستخدام البستلة الألومنيوم المستخدمة في بيت أمي.

أفزعتني نقرات بباب غرفتي، «ما زال الوقت مبكرًا على موعد العشاء» كذلك قلت لنفسي حين نظرت إلى المنبه، تجمدت لهنيهة في مكاني وترددت

في فتح الباب فأنا لا أعرف أحدًا هنا، دفعني حب الاستطلاع لمعرفة من يقف أمام حجرتي وسبب مجيئه عندي.

قلت ربما أتت إحداهن لتتعرف عليّ. سعدت بهذه الفكرة لأنها فتحت في قلبي سيلًا من الأفكار الإيجابية، أهمها أنني سأحصل أخيرًا على صديقة تسلي وحدتي وأشاركها حزني وعجزي، ونتجول معًا في المدينة.

كنت عند الباب في قفزة واحدة لأفتح، وجدت الفتاة عينها التي دلتني على مكان الحمام منذ قليل، سألتني بود: «لن تمانعي دخولي؟»

أجبتها بخجل وارتباك واضحين بعدما شعرت بالإحراج من سؤالها:

«لا طبعًا، تفضلي».

قالت: «نادرًا ما يخصصون غرفة من أجل فتاة واحدة، يبدو أنكِ مهمة» بينما كانت تسير نحو الكرسي لتجلس قالت باستغراب أقرب للتهكم: «ثلاجة ومروحة!»

كنت واقفة ما أزال أمام الباب المفتوح الذي جاريتها بسخرية عند إغلاقه: «لست بأهمية من أحضروني إلى هنا».

لم أشرح ما عنيته بجملتي، اكتفيت بمعرفتي الحقيقة التي ليس من شأن شخص آخر معرفتها، أن الهبات التي أتمتع بها دون الجميع ويبدو أنني محسودة عليها ما هي إلا صدقة قدمتها المرأة الأرستقراطية كاستثمار خفي مع الله، ومقايضة واضحة على دخولها الجنة.

جلسنا معًا نتبادل أطراف الحديث، عرفتها على نفسي وعرفتني على نفسها، اسمها رقية وهي طالبة في كلية الآداب، أخبرتني أنه عادة تجتمع الطالبات اللاتي تنتمين إلى كلية واحدة في مبنى واحد لكنهم وضعوني في آخر غير الذي تقيم فيه زميلاتي في كلية الطب بسبب قدومي المتأخر بعد بداية الدراسة بفترة كبيرة، أخبرتني باستهزاء عن مدى سعادتها لي بذلك، لأن الإقامة هنا أفضل من المكوث مع «الدحيحات» في مبنى قد أحالوه بجديتهم المفرطة إلى مقبرة يتمدد فيها الموت بشكل ثقيل.

لم أتمالك نفسي أمام خفة ظلها التي أثارت ضحكاتي.

أدارت نظرها في الغرفة وقالت وهي تهم من جلستها استعدادًا للرحيل:

«ابتسامتك ما زالت بريئة، أتمنى ألا تصدمك الحياة، لكن بالنسبة لما حدث معك منذ قليل ستعتادين عليه مع الوقت وستمارسيه فيما بعد على النزيلات الجدد بلا أدنى شعور بالذنب».

تركتني وذهبت بحجة عدم تعطيلي عن إنهاء أعمالي التي أقوم بها قبل المساء، أكدت أن لحديثنا بقيه وأنها ستأتي من جديد لأعترف لها بالسر من وراء التجهيزات الخمسة نجوم لغرفتي والتي ربما تشاركني بالتمتع بها كنوع من الاستغلال الحميد بين الصديقات، واصلت تبادل الدعابات مبتسمة:

«حاولي أن تقللي من كلامك».

ضحكت جدًّا حتى اهتز جسدها الأبيض الملفوف الظاهر من تحت بيجامتها القطنية وقالت قبل أن تفتح الباب وتخرج:

«نصيحتك بلا فائدة».

وجدت نفسي أتخيل الليالي القادمة بأمسياتها المسلية الجديدة من نوعها في حياتي فاعتدل مزاجي وراق.

تناولت طوال الفترة التي راعيت فيها أعمالي تلك النوعية من الخيالات السعيدة، سرى مفعولها في بدني كمسكن لكل الآلام الجسدية التي جلست قبل قدوم رقية لأستريح منها.

تناولت عشائي وأسدلت الستارة فوق النافذة الزجاجية ثم أطفأت نور الكهرباء المنبعث من لمبة خافتة متدلية من السقف، سرعان ما استسلمت للنوم بعد أن بدلت ملابسي ومسحت جسمي بفوطة مبللة بماء الورد لأتخلص من آثار العرق وروائحه إلى أن أستحم غدًا. نمت نومًا مضطربًا غير هادئ تداخلت فيه أحلام غريبة أقرب للهلاوس، فقد رأيت أنني أغسل حذائي الرياضي (الكوتشي) في حوض الاستحمام الخاص بالمرأة الأرستقراطية وأحكه بفرشاة البلاط بقسوة لأزيل كل البقع المتراكمة عليه بلاجدوى، انتفض جسدي حين شعرت به يتحرك وأنا تحت سيطرة عقلي اللاواعي في حركات عنيفة للتخلص من الرواسب التي لا تخف، اضمحلت قدرتي تدريجيًا واستسلمت لخيبة الأمل وفي حنجرتي علق كثير

من البكاء المكتوم على المجهود الذي بذلته وذهب سدى، بجسد يخلو من الحياة حملت خيبتي في يد وحذائي في اليد الثانية، وضعته في الهواء ليجف، بعدها رأيت نفسي أستيقظ من نومي في الحلم، كان الحذاء بمحاذاة رأسي الذي يرتخي فوق فراشي القديم ببيت أمي!

تطلعت حولي بدهشة لأتأكد من المكان، كنت ألتقط أنفاسي بصعوبة وأنا أرتدي زي المدرسة وكأني عدت من جديد لقتامة أيام العجوز والشعور الصباحي بالتعب والإرهاق البدني بعد ليلة مليئة بالأفعال النجسة المرهقة.

أزعجتني حالة التدافع التي تزاحمت بها الطالبات أمامي خاصة بعد التهيؤات التي توغلت في عقلي، تخيلت أنني أسقط تحت الأقدام كضحية دعسوها، شعرت بعظامي تتكسر بينما يقبل وجهي التراب، صرخت من الألم، لكن هيئتهن أكدت أن صوت صراخي لا يصل، نظرت حولي فأدركت أنني ما زلت واقفة على باب المدرسة فشكرت الله، مرت بجانبي واحدة أعرفها، أشرت لها بيدي سريعًا لتقف، سألتها باندفاع:

«هل يمكن أن تحضري لي حقيبتي من الفصل؟»

تقوس فمها وردت بقرف:

«لا، تولي أمور نفسك».

وبينما تسير دون أن تشرح سبب رفضها إذا بدمعة مالحة تنحدر إلى فمي،

امتصصتها بحرارة وكبرياء من ارتطم بقلبه حجر ثقيل، تلظت حرقتي بلا شعور وارتفع صوتي، انهلت عليها بالسباب، شتمتها بأهلها طعنتها في شرفها، بلا خجل ذكرت أعضاء أمها التناسلية لكنها لم تلتفت للوراء لترد على كلامي وكأنها لا تسمعني.

فكرت للحظة أنني شفافة، جسد غير مرئي صوت لا يُسمع، إنسانة تلاشت بالفعل من فرط التحقير منها. ركضت سريعًا جدًّا في اتجاه الفصل وكأنني أتحداهن جميعًا، شعرت بقلبي سيثب من صدري لكني لم أعبأ به، اخترقتني فكرة بالتوقف لكني أهملتها حين تعثرت على الدرج، لا شيء يشفي غليلي بعد السقوط المؤلم إلا مواصلة ما بدأته بدون استسلام، وصلت إلى الفصل وأنا على وشك فقدان الوعي، انتابتني حالة من العصبية بعد علمي بانفصال صديقتي التي تجلس بجواري في «الدكة» عني والتي تفاجأت بكونها «رقية»، مستحيل! ما الذي أتى بها إلى هنا! نظرت حولي كالمجنونة، أدرت رأسي في اتجاهها، تسرب في أذني صوت ضوضاء لا أعرف مصدره، إنه أقرب لجرس إنذار للحريق، وخزت نفسي قائلة:

«كل ما يحدث هواجس».

ازدادت الضوضاء، ربما كان قلبي يهدد بكارثة سيفعلها، توجهت إليها بينما تجلس ساكنة متحفزة ضدي.

برهافة بالغة لمتها:

«لماذا تركتيني! لم يصدر مني أي إساءة في حقك؟»

رمقتني بنظرة احتقار:

«لا يشرفني معرفتك، فتاة مثلك تنطق بشتائم لا تخرج من فم إنسانه محترمة، وتسب كُل من يرفض أن يسدي لها معروفًا».

حدثتني بقساوة، أشعرتني بأني تصرفت بحماقة، لم يكن الذنب ذنبي، ما فعلته مجرد رد فعل طائش على رفض مساعدتي في أمر أتفه من أن يرفض برضا، مما أثار سخطي، حاولت أن أعود لمكاني لكنني امتلأت بخفقان في القلب وصداع يخترق دماغي وجفاف رهيب في حلقي وشعور مبالغ فيه بالغليان الداخلي، هزل جسدي وأوشكت على السقوط، ورغم أنني من مواليد الربيع لم يسبق لي أن أزهرت أبدًا، اندلعت مني صرخة مدوية، صرخة بشعة أشد وطأة على أذني من صوت الضوضاء، قلت بعد أن فقدت السيطرة كليًا:

«لا أستحق عقابًا كهذا، شتمتها لأني تعبانة، تعبانة تعبانة».

ترهل جسدي وأنا أعترف بتعبي قبل أن يرتطم بالأرض، كانت رائحة النبذ تتسرب تجاهي من كل ذرة في الكون، لعنت نفسي وجسدي وأمي وأبي والعجوز والمرأة الأرستقراطية وقبل أن أختم القائمة باسم الله أيقظني صوت أذان الفجر ممزوجًا بخبطة عنيفة على الباب وفتاة تصيح بجدية:

«صلاة الفجر، صلاة الفجر يا مسلمات».

إنها الإشارات التحذيرية التي تحدث لتلفت نظري باستمرار إلى الشروخ

التي يجب أن أرممها داخل دائرتي العقيدية فأتجاهلها بسذاجة، ورغم غبائي لم يتوانَ الله عن إرسالها لقلبي الذي يدمره الغضب بعنف وهو يستجدي التعاطف من البشر ولا يحصل عليه فيصاب بالتعاسة ويتمادى في نقمته على ما يصيبه به الرب دون أن يكلف نفسه عناء الرجوع إليه.

غضضت الطرف عن النداء للصلاة، حاولت استدراج النوم مرة أخرى لكنه لم يأتِ، حاولت أيضًا البكاء لكني فشلت، انتظرت أول شعاع شمس لأغادر السرير وأتسلم وجبتي الصباحية المكونة من رغيف خبز بلدي وقطعة جبنة قريش وعلبة زبادي، والتي انزويت أتناولها مكتئبة. كانت الساعة حوالي السابعة حين سمعت رقية وهي تطبل بأصابعها على الباب، استقبلتها في صمت، جلست أمامي على الطاولة ووضعت كوب الشاي الذي كانت تحمله، قالت:

«الظلال السوداء أسفل عينك تدل أنك لم تنامي جيدًا».

هززت بكسل رأسي مؤكدة كلامها وأنا مستغرقة في تذكر أسلوبها الفظ معي أمس، فكرت في صدها لأشعرها بأنها غير مرغوب فيها كي لا تأتي لزيارتي مرة أخرى، لكني تراجعت، إنه من الجنون معاقبتها على ما لم تفعله أو بالأحرى ما فعلته في أحلامي دون إرادة منها!

ارتشفت رشفة أخيرة من كوب الشاي وكأنها تستنجد به أمام ثقل دمي، رفعت شعرها البني الناعم من على وجهها المستدير:

«ما سبب الكآبة على صباحية ربنا!»

كانت رقية خفيفة الظل تحب الثرثرة والضحك، تعيش حياتها كما تريد بروح حرة مائلة للهزلية.

تحدثنا عن مسقط رأس كلتينا، وعندما وصل مسار الكلام لأهالينا أصبحت المصارحة صعبة فاقتضبت كلتانا في الحديث، أدركت أنني لست الوحيدة التي أتت إلى هنا محمله بشيئين هما الهموم والأحلام.

أخبرتني عن طبيعة الحياة هنا، وبأن بيت الطالبات ما هو إلا بؤرة تجتمع فيها كل النوعيات التي تخطر في بال أي إنسان، قالت إنني سأرى الحياة هنا كما لم أرها من قبل، قطعت كلامها بضحكة تفور بالسخرية:

«بالتأكيد طرق الشيوخ بابك وقت الفجر»، وأضافت: «بارك الله في ميتين أبوهم».

انفجرت في القهقهة بسعادة مرددة في نفسي بتفاهة:

«إنها تسب وتلعن مثلي، وقد كان كل ما رأيته مجرد أضغاث أحلام».

انصهر الحاجز الجليدي بيننا، فالحواجز عادة ما تتلاشى بين شخصين بلسان طويل.

رمقتني بنظرة أمومة:

«أنتِ محظوظة، لأني استمررت عند مجيئي هنا لشهرين لم أصادف أحدًا يبادلني الكلام أو يسألني حتى عن اسمي، لذلك سأمد لكِ يدي بعرض سخي، خروجة مسائية، ما رأيك؟»

قفزت من مكاني، احتضنتها وقبلتها بعفوية طفلة وجدت من يؤنس وحدتها وقلت:

«ياريت، ستكون الذكرى الأولى التي أتجول فيها بالمدينة لكِ».

وبقلب مضطرب ظللت أعد الساعات وأنتظر الميعاد الذي سأتعرف فيه على المدينة.

2

حين يتشوه حاضر الإنسان ومستقبله يصبح الماضي هو الشيء الوحيد الذي يملكه لذلك يفرط في الانغماس فيه. إنني بعد أكثر من عشر سنوات لا زلت أفتقد البصيرة الثاقبة للتخلص من مشقة مطاردة الأشباح الآتية من الخلف، أعيش حاضري عبر دهاليز الماضي وكأنهما مربوطان بخيط شفاف أمانع الانعتاق من سلطته القهرية.

يحزنني تلاشي قدرة ذاكرتي تحت تأثير مضادات الاكتئاب على استدعاء الشرارة الأولى التي بدأت منها قصتي أنا وهاشم، الرجل الذي أحببته رغم أنه لم يكن يشبه رجلًا من المحتمل أن أحبه.

تبدو التفصيلة المتعلقة باضطراب إيقاع دقات قلبي عند رؤيته للمرة الأولى باهتة، رغم أن عشر سنوات ليست بالمدة الزمنية الهائلة لتفقد ذاكرتك

القلبية قدرتها على استعادة لذة حدث مهم في حياتك كأول قصة حب يهتز لها كيانك.

خيالي قادر على استدعاء كُل تفصيلة تخصه على حدة، بمعنى أنني أتذكر شكل يده وهو ممسك بالولاعة لإشعال السيجارة، والاصفرار الذي كان يكسي ما بين السبابة والوسطى في كفه اليمين، بمقدوري استرجاع توهج عينيه العسليتين وهما يمتلئان بالرغبة الفضاحة، بالإضافة أيضًا لشعره الكثيف المجعد ولون بشرته البيضاء التي أكسبتها الشمس حُمرة متقدة، لكنني أخفق حين أحاول تجميع كل تلك التفاصيل في صورة ذهنية واحدة. لا أدري كيف حدث هذا! وكيف تكرر سلوك التناسي إلى الحد الذي تحول فيه إلى نسيان حقيقي لوجه الرجل الوحيد الذي أجزم بكل ما أوتيت من اليقين أنني أحببته بصدق ونزق المراهقين. سعيت للانتصار في حرب السنوات العشر التي قدتها ضد حبي للتغلب على الهوة النفسية التي سقطت فيها سهوًا، ورغم أنني رميت كل ما يذكرني به، غيرت العطر الذي اختاره لي وقصة شعري التي رآها المناسبة لوجهي، مسحت رقم هاتفه، حتى اسمه لم أنطقه لسنوات، إلا أنني لم أتعافَ من آثار الخذلان المتكرر الذي شعرت بعده كيف بتر الحب أجنحتي وهز ثقته في العالم، الذي كان منذ أن ولدت مهزوزًا!

إلى اليوم هاشم هو الرجل الوحيد الذي أملك مبررًا للخوض في تجربتي العاطفية معه، أكسبتني القسوة التي رأيتها في حياتي هشاشة أمام حنان أول

رجل فتماهيت في الاتجاه الذي شدني إليه كالممسوسة. تركت مصيري في كف إنسان حاد جدًّا ومؤذٍ جدًّا دمر حياتي وأشعل النيران في قلبي البكر، ويبدو لي ما أنا عليه بعد الخسارة الأخيرة على يده صورة لقلب باهت مهترئ اضطررت للتأقلم معه.

ما أتذكره حقًّا انبهاري الذي لم يخمده حقيقة كونه مشروع حبيب لرقية صديقتي والتي استدرجتني في مقابلتها العشقية الواحدة تلو الأخرى لألعب دور المحرم الذي لم أبدِ أي اعتراض عليه بعد وعدها بأنها ستلح عليه لإحضار صديق له يسليني في المرات اللاحقة فبدت المقايضة منصفة بأن نصبح ثنائيين يتنقلان معًا، لكنه لم يستجب لطلبها ألبتة، فظل ثلاثتنا نجلس ملتفين حول المائدة الخشبية المستديرة في زاوية داخلية لا تطل على واجهة المقهى الزجاجية. كان المكان مكتظًّا بالعشاق والرفاق الذين اعتادوا على الجلوس معًا بينما يتبادلون الحوارات بينهم بلهجة منفتحة كالتي يستخدمها هاشم، غير مكترثين بمظهرهم الخارج عن المألوف وهم يدخنون بنهم كميات مبالغ فيها من التبغ.

لم تغير رقية طلبها المعتاد والذي كان عبارة عن كوب شاي من النادل الأربعيني القصير المرتدي قبعة من القش وزيًّا موحدًا يرتدي مثله كل الندل في المقهى، يشرع لنا الباب مرحبًا بنا بلهجة عربية أصيلة:

- مرحبًا.

فأكتفي بابتسامه خفيفة في وجهه، بينما تجيب هي بحماسة زائدة:

- يا أهلًا يا أهلًا يا عم رائد.

كانت ملامحها تلتفت لي بين الحين والآخر وهي تسير بخطوات متباطئة وكأنها تنتظر مني الإفصاح عن إعجابي بالجو العام للمكان بما فيه النادل الذي يحيينا بلهجة غير مصرية لكنها حميمية كالأغنيات التي تصدع في الأرجاء طوال الوقت، لكنني لم أستوقفها لكيلا ينتفخ ذاتها على حساب انبهاري.

كذبت حدسي الأنثوي وهو يستلذ بطعم الإعجاب الشهي المنبثق منه تجاهي، واستخدامه طلبها كمادة للسخرية لم تأخذها هي أبدًا على محمل الجد فلم تغيره لترضيه، كان يضحك بسخرية:

«شاي! كلمة مذكرة ثقيلة على القلب واللسان ومزاج متدنٍّ يشبه كيف السبرساجية، ليس كالقهوة كلمة خفيفة، رائحة منعشة، طعم لذيذ إنها كالأنثى تمامًا مزاج البشوات».

تنبأت أن تواجدها على تلك الطاولة خطأ سيصحح عاجلًا أم آجلًا، وأن الكيمياء المدهشة التي تدفقت بيننا منذ اللحظة الأولى فكشف أمر نفسه بفقدانه السيطرة على النظر إليَّ بوله، فشعرت كلما مست يده يدي أن ذلك لا يحدث من قبيل التحية وإنما لشعور بأنين رغبة مكبوتة للانفراد بي ظل طي الكتمان كي لا يجازف بفقدان عصفورة اليد من أجل صديقتها القابعة بعيدًا فوق الشجرة المحرمة.

تماديت في افتعال أحاديث مطولة فيما بيني وبين نفسي بينها يتبادلان هما أحاديث سرية بأصوات خافته لم تثر عندي غيرة ولم ألقِ لها بالًا لأنه في الوقت ذاته كان يتبادل معي النظرات بمهارة من يجيد اللعب على كُل الحبال في آن واحد، فأصرخ بداخلي متذمرة:

«هاشم، كف عن النظر لي بهذه الطريقة التي سأخسر بسببها صديقتي الوحيدة إن لاحظت ما تقوله بعينيك»، وكان يرد عليَّ وهو في حالة فقدان لوضع مشاعره تحت السيطرة:

«من الأفضل أن تشعر قبل أن أخبرها بنفسي، الصمت يكلف قلبي من عذاب البعد عنك فوق ما يستطيع تحمله».

«يا مجنون هل سيرضيك أن أصبح وحيدة كالأموات في السكن؟»

«لن تكوني وحيدة أبدًا في وجودي».

«لو عرفت لن تحضرني معها في المرات القادمة».

«بدونك لن تكون هناك مرات قادمة».

محدودية السيناريوهات التي حكمها صغر السن وسقف الطموحات المرتفع فرضت على خواطري الارتجال والتداعي الحر وأنا أرتشف عشرات من أكواب القهوة في انشغال تام لأثبت له انتماءنا لفصيلة واحدة، اتبعت العادات التي جبلني عليها كطالب مطيع يلتزم بالإرشادات المدرسية المكتوبة فوق ظهر الكتاب، وكنت على استعداد أن يمتلئ صدري بلفائف التبغ

التي تعلمت منه كيف يعدها يدويًا وأصبحت فيها بعد أجهزها له بفخر، قبلت سيجارتي الأولى لمجاراة التيار الذي جرفني فيه انجذابي له دون أن يبذل جهدًا لاستمالتي وقاومته رقية بكل خبراتها السابقة في عالم الرجال، قال بينما يندمج الدخان الصادر من فم كلينا:

«المجد للمدخنين الذين اكتشفوا أن ثمة خللًا في ميكانيزميات الحياة قد دفعهم للانحراف عن الإطار الذي خلقته الأنظمة الاجتماعية من قوانين تبرز القهر والسيطرة والقوة وأطلقوا عليها ما يسمى بالضبط الاجتماعي».

صمت كأنما يأخذ نفسًا ليقول شيئًا آخر مهمًا:

«الضعيف حين ييأس ينتحر أما القوي يدخن، إنه نوع من الإخفاق في خداع الذات بأن هناك غصة وكسرًا يستحيل تفادي مضاعفاته النفسية التي ربما تقود إلى الجنون وذلك يدفع الأقوياء منا إلى حتمية اختيار واعٍ لتلاشي مقسم على مراحل يضمن لهم مقدارًا من اللذه للتخفيف من وطأة الألم».

جازفت رقية قائلة:

«هراء، التدخين في النهاية نوع من الانتحار طويل المدى».

قال لها:

«لو اعتبرنا فعليًا إنه انتحار، على الأقل سيكون مقبولًا اجتماعيًا ليس كانتحار مدمني الهيروين الذين لن ينتصبوا في منتصف الشارع شاهرين

تذكرة البودرة أمام الناس بسعادة، لن يسمح لهم المجتمع بذلك ولن يسامحهم أحد وأولهم أهله، سيكونون في نظر الجميع منحرفين وفي نظر الدين مجاهرين رغم معاناتهم وفي نظر أمثالي أبطال لأنهم ما زالوا مستمرين في الحياة دون أن يقفزوا من أعلى السطح أو يشربوا علب الدواء الموجودة بالبيت، ولأن نوعي ما زال غير متوحد في كيان ليدافع عن حقوق كل المنبوذين الذين كانوا في الأساس أشخاصًا جيدين لكنهم تحولوا إلى وحوش بفعل الأذى النفسي المتعمد الذي لحق بهم، ستجدين كل هؤلاء يمارسون سلوكياتهم في غرف خلفية مظلمة على استحياء برفقة آخرين يبحث كل منهم عن نظرة تقبل في عين الآخر، ولذلك يتفننون في بناء تلك الغرف بجودة عالية ليقيموا فيها مستترين أعين الجلادين عند ممارسة ما، لن يسمح لهم الإقدام عليه في العلن ولذلك نحن جميعًا نجلس هنا، إن هذا المكان ليس مجرد مقهى كغيره، إنه إحدى تلك الغرف يا بنت العبيطة».

رمقته بنظرة استخفاف وكأنها تقول:

«ربما كل هذه الهرطقات بفعل تدخين الحشيش!»

قام بنشاط مفاجئ وكأنه سمع صدى خواطرها بوضوح وأراد أن يريها تأثير الحشيش على أصوله، وقف فوق الكرسي كمن يستعد للصعود على خشبة المسرح لإلقاء كلمة مؤثرة، نظر للجالسين على الطاولات المجاورة مستأذنهم أن يعيروه انتباههم لدقائق، التفت الجميع إليه وقد بدا الإعجاب جليًّا على وجوههم التي تألف ما يحدث، قال بصوت عالٍ:

«لكل منا فلسفته في الحياة كما لكل منا لحظة لا يعود بعدها كسابقه مهما حاول استرداد ذاته القديمة يخفق، وكما نختلف في بعض الفروق الفردية نختلف أيضًا في فروق إدمانية لكن نظل جميعًا في النهاية مدمنين ولا أستثني منا أحدًا».

عشرات من أصوات الجالسين خرجت مع بعضها في آن واحد داعمين ما قاله، معجبين بجنونه الذي كنت أتابعه بانبهار وكأني أقرأ رواية مليئة بالفانتازية التي لا أملك أي رد فعل أمام جرأتها إلا تكرار الشهق بفم مفتوح وعينين مبهورتين.

زفرت رقية بضيق. تطاير الشرر من عينيها وهي تخبط بيدها بعنف فوق الطاولة موضحة أنه لم يروقها مطلقًا التصرفات الطائشة التي حذرته من اقترافها بعشوائية وهي بصحبته مما يعرضها لانتقادات الناس وكلامهم، قالت وهي تنهض من مكانها:

«لا يغمض لك جفن إلا إذا تفننت في افتعال الفضائح بغباوة، يسعدك الاستعراض كطفل يظهر لعبته أمام الناس أنت مولع بجذب الانتباه وإثارة الجدل لينشغل الجميع بأفعالك».

رفع إحدى حاجبيه ثم هتف بمشاكسة:

«إنني أجتهد فقط لإمتاع جمهوري».

كنت ما أزال متجمدة في مكاني تحت تأثير صدمة رده، أتابعهما بتركيز

وهما غارقان في الجدل، تهاجمه هي بعصبية بينما يرد عليها ببرود وهو يدخن سيجارته كمن لا يهتم بالانتصار لوجهة نظره بقدر اهتمامه بحرق دمها. تساءلت كيف انجذبا من البداية بعضهما لبعض! إنهما مختلفان تمامًا وكل الأشياء فيهما وحولهما تقر بذلك الاختلاف، يفرقهما طريقة العيش، نمط التفكير، أما هو وأنا فمتشابهان داخليًا، شيء في كلامه عن العطب الذي يولد في الروح أثر الهزائم عبر عني وكأن عقلي كتاب مفتوح أمامه.

خرجت من المقهى وتابعتها بعد أن تبادلت معه نظرات قصيرة وسريعة أنعشت إحساسي بالحياة، قرأت وعدًا غامضًا بشيء لا يمكنني وصفة بقدر ما أحسست به، بعض المشاعر لا يمكن أن تسعها الأبجدية لذلك اكتفيت باللذة التي غمرتني والتي لم أرغب في تخريبها بكثرة التفكير في ماهيتها، اجتاحني شعور مجنون بالإعجاب الذي سرعان ما تطور خلال أيام إلى حب، انفجرت في روحي طاقة نورانية شعرت أن الكون من حولي يبتسم للمرة الأولى، كان الهواء يخترق رئتيَّ بخفة بعد أن كنت قد تعايشت مع التنفس بصعوبة، تخيلت نفسي صحراء تدفقت المياه من بين رمالها الجافة فبثت فيها الحياة، أنني أنعم بحياة برزخية يسودها التسامح مع كُل ما كسرني، امتثلت للأقدار التي وضعته في طريقي بغتة حتى وإن كانت تأخرت كثيرًا، توقفت عن عادة طرح الأسئلة الوجودية التي لا جدوى من طرحها ووجدتني أعيش لأشعر أكثر مما أعيش لأفكر.

سرنا بسرعة الضوء في طريقنا نحو بيت الطالبات قبل أن تصبح الساعة الثامنة مساءً، أخرجني القلق من جنتي، خفت بشأن التأخير عن آخر

موعد للدخول إلى السكن الذي في هذه الحالة يمكن تحويلنا لمديرة الدار بسببه، ما طمأني نسبيًا ثقة رقية وخبرتها حين قالت بعد أن شبكت ذراعها في ذراعي:

«لا تكوني جبانة، رشوة بسيطة للأمن تحل الأزمة مهما تصاعدت».

سرنا مسافة لا بأس بها حتى وصلنا إلى البوابة، كان الجو هادئًا تمامًا، يخلو من أي صوت إلا صوت الأخبار الصادرة من جهاز الراديو الترانزيستور الذي يحمله الحارس.

بعد قصة طويلة من اللف والدوران طلبت مني خمسة جنيهات لتعطيها للحارس، فوضعت يدي وأخرجت النقود التي طلبتها، لاحظت أنها لم تخرج جنيهًا من حقيبتها منذ أن خرجنا ففهمت الدور الثاني الذي تصطحبني بسببه، يتكفل هاشم بمصاريف المشروبات وأتحمل أنا عبء رشوة الأمن دون أن تضطر هي لتحمل أي من الأمرين. اقتربت منه بطريقة فجة ووضعت النقود في كفه ثم همست بصوت رقيق:

«مساء الخير يا عمو».

حدق في وجهها بجرأة ونهض معترضًا طريقها بعد أن تلفت يمينًا ويسارًا ولم يرَ غيري، وضع يده على ظهرها ونزل بها حتى استراحت على استدارة ردفها ثم قال:

«مساء الخير يا عسل».

اكتسحتني ذكرى العجوز ودفعتني للتصرف بارتباك فدفعتها بقوة كي تمر بسرعة دون أن تلمس يده جسدي من بعدها، فقدت أعصابي وغرقت انفعالاتي في ظلام دامس، تخيلتني أنهال عليها بالضرب لكني اكتفيت بأن أعنفها كي لا تكرر حماقتها على الأقل حين أكون معها وقلت:

«ما هذا الجنون! من يراكِ الآن لا يصدق أنكِ كنتِ منذ قليل ترفضين تصرفات هاشم! كيف ترضين أن يضع هذا البغل يده عليكِ!»

«أعتبره مثل جدي، لا خوف منه صدقيني ما حصل عليه هو أقصى طموحه».

«جدك! هل أنتِ مقتنعة!»

اقتربت مني ثم وضعت يدها على كتفي:

«أستوعب ما يدور في داخلك، أنتِ مستغربة من أن الحارس حصل على لمسة مجانية لجسدي بينما لم أسمح لهاشم بلمس طرف يدي، في رأيك أنه أولى، لو سألتيني عن الصح فكلاهما ولاد كلب لا يستحقان إلا الضرب بالنار لكن التعامل على الواقع مختلف عن المثاليات والكلام النظري، الرجال لا تقدم شيئًا بدون مقابل صغيرًا كان أو كبيرًا، الفكرة كلها تتمحور حول هل ستستطيعين دفع المقابل وأنتِ تنظرين مباشرة في عين من حصل عليه أم أن المقابل الذي ستدفعينه سيكسرك أمامه إلى الأبد؟»

سأوضح لكِ الأمر ببساطة:

«الحارس رجل بسيط سقف طموحه ليس بعيدًا عن الأرض التي يعرف جيدًا دوره الضئيل عليها، أما أمر هاشم فمختلف تمامًا، العبث معه سيكلفني الكثير، لذلك هو يخفي حقيقة ما يريده وفي المقابل أتصنع أنا البراءة. إنني أتبع نصيحة صديقة قديمة قالت إن اضطررتِ لأن تكون تصرفاتك رد فعل لتصرفات الرجل كوني أسوأ من الفعل ذاته».

أرخيت عضلات وجهي ونظرت إليها أفكر في كُل حرف قالته وما الدافع وراءه، صعدنا إلى أعلى بصمت وحين وصلنا لباب غرفتي أخبرتني أنها ستبدل ملابسها وتأتي لعندي. التفت إليها وهي تتحرك في اتجاه غرفتها بينما أقف في مواجهة الباب المغلق.

تغير مزاجي وانقلبت سعادتي رأسًا على عقب، أيمكن أن تكون لاحظت الطريقة التي نظر بها إليَّ فقالت ما قالته لتزرع في عقلي صورة سلبية وخوفًا تجاهه! لا أعرف! لكن إن كان بهذا القدر من السوء لماذا تربطها علاقة به! لماذا لا تتركه وتبحث عن آخر لا يكلفها العبث معه أكثر مما يكلفها التأخير عن مواعيد دخول السكن! الدافع الوحيد للتمسك به إلى هذه الدرجة أن تكون واقعة في حبه لآخر خلية في قلبها وهذا مستحيل، أن تحب معناه أن يوجه أحدهم فوهة مسدس لقلبك ولا تتحرك من مكانك مرحبًا بتدميرك على يده وهي تفعل معه العكس، إنها تحسب حسابات لا يعرفها الجنون الذي يضيفه الحب إلى عقل المرء، إننا نعرف من يحب من نظرة عينه، من تهوره، وأنا واثقة من أنها لا تحبه نهائيًا، إنها على ما أعتقد تريد الانتصار

ليس عليه فقط بل على النساء اللاتي يعرفهن، إن هذا النوع الكاريزماتي من الرجال يبدو جذابًا للفوز به، إنه يستفز قدرتنا الأنثوية المتمثلة في سماتنا الشخصية قبل تضاريسنا الجسدية والتي نريد من خلالها إثبات لأنفسنا قبل الأخريات أننا مختلفات لا نشبههن، وحدهن الرخيصات يفقدن زهوتهن بمرور الزمن أما نحن فنزداد سحرًا، إننا في حياة ذلك الرجل أكبر من تأثير الخمر التي يزول بمجرد الاعتياد.

حضرت رقية بعد نصف ساعة إلى غرفتي، كنت أفرز الملابس لأخرج منها القطع التي سأغسلها غدًا. عرضت عليها أن تقيم عندي تلك الليلة، وافقت ثم أكدت بهزل قائلة:

«سأبقى هنا ليس من أجل سواد عينك ولكن لمشاركتك هواء المروحة المنعش».

ابتسمت لها بلؤم فلم يكن عرضي أيضًا خالصًا لوجه الله، لا بأس إن تشاركنا في بعض الامتيازات التي لن يضرني اقتسامها معها لليلة، مقارنة بالمقابل الذي سيعود على قلبي ولو بفائدة ضئيلة.

كان يجول في خاطري كثير من الاستفسارات والتي تسببت في اتساع فجوات أردت ملأها بأقصى سرعة كي أهدأ، طرحت عليها بعض الأسئلة لاستدراجها وكأنني أتبادل معها الحديث الحميمي كأي صديقتين، بينما كنا نجلس بجوار النافذة سألتها:

«لماذا اعترضتي على رأي هاشم، فقد بدا كلامه منطقيًّا جدًّا بالنسبة لي؟»

اعتدلت في جلستها وقالت بجدية:

«لا أترك نفسي لقناعاته المجنونة، هاشم بحر يسحبك بهدوء ليغرقك في النهاية بلا رحمة، بصراحة اعترضت على قبولك السيجارة التي عرضها عليكِ».

ضايقني تعليقها الذي شعرت من خلاله بالنقد لإحدى تصرفاتي وكأنها رقيبة على تصرفاتي التي ليس من حقها التعليق عليها بالسلب أو بالإيجاب، قلت بغيظ منقطع النظير:

«طالما أن رأيك به واضح لماذا تستمرين في علاقتك معه!»

تأملتني بعد أن مالت على المنضدة:

«علاقتنا ما زالت في بدايتها، أعرفه منذ عشرة أيام فقط، ولم نتعدَ حدود الصداقة التي ربما تتطور وربما لا، هذا شيء في علم الغيب لكن ما حُكي لي عنه يجبرني على الحذر منه».

شعرت بسحابة ثقيلة تتلبد في قلبي سألتها:

«ماذا حُكي لكِ عنه؟»

كان وجه رقية حزينًا وكئيبًا، تتحدث بحذر عن الرجال وتجمعهم معًا في سلة واحدة مرتكبة خطأ التعميم، لم تصارحني بخيبتها السابقة لكني لمحتها بوضوح، قالت:

«سألت إحدى صديقاتي عنه فأخبرتني أنه جار حبيبها وأنها ستسأله، بعد يومين قالت إنه مقتضب في الكلام عنه كأنه لا يريد أن يدلف نفسه في مشكلة، لكنه نصحها أن أسأل عنه جيدًا قبل تورطي معه في علاقة.

لم أكن بحاجة إلى السؤال عنه بعد أن أيقنت بفراسة أبعاد كلمة «تورطها معه في علاقة» ليس هناك إلا سببان لا ثالث لهما ليطلق على دخولك مع أحدهم في علاقة ورطة، الأول إما أن يكون نسوانجي والثاني أن يكون مدمنًا».

عارضتها فيما قالته:

«يمكن أن يكون هناك أسباب أخرى، مثلًا أن يكون كذابًا، سلبيًّا، لا يعتمد عليه».

قاطعتني وكأن كلامي أرخص من أن يباع أو يشترى:

«يا غبية، المدمن سـلبي والسـلبي كذاب والكذاب حرامي، وكذلك النسوانجي».

ثم أكملت بجدية وهي تقعص شعرها:

«افهمي يا ليلى ليس هناك رجل واحد يهمه قلب المرأة بقدر ما يهمه جسدها».

«يا حبيبتي خلقت النساء كي يعجب الرجال بهن، هذه الفطرة».

«لو اعتبرت كلامك صحيحًا على غرار أسلوب هاشم المجنون والذي

يبدو أنه نال إعجابك واقتنعت أن قلب المرأة يدخل في معادلة الحب المتعلقة بالرجل، فبالتأكيد هذا الرجل لن يكون هاشم».

أضافت:

«لا أريد أن أنجرف في طريقه الذي سينتهي بي إلى مكان واحد فقط، السرير».

«السرير ليس نهاية، إنه مرحلة».

«صحيح هو بالنسبة لنا مرحلة، أما له فهو النهاية».

كان من الأولى أن يدفعني كلامها في اتجاه مغاير عن الذي دفعني إليه عنادي، أدركت يومذاك حقيقة أنه لا يؤتمن ومع ذلك لم أعرقل نفسي فقدمتها كقربان بكل امتنان تحت تأثير ما نفثه في أذني قبل أن ألحق برقية خارج المقهى:

«المتعة لا تملك إلا عدوًّا واحدًا، التردد».

ليصطادني لم يكن في حاجة لبذل مجهود أكثر من استفزاز جرأتي لمواجهة العالم في حالة انفضاح سري معه، وسمعتي التي انهارت بسبب نزقي، ما زلت أتذكر الحجم الهائل لأحلامي البريئة أثناء الليالي الأولى من قصتي معه، وكيف حلمت بأن أصبح أمًّا لأطفال منه، خاصة بعد أن كتب بخط يده أنه يتمنى لو أن الله يرزقه مني ذرية صالحة. كان ضياع حبي الأول بمثابة النار التي أنضجتني وبعد أن أضافت لي الحياة مقدارًا لا بأس به من

الخبرات التي لم أكن مهتمة باكتسابها، تمنيت لو بإمكاني استرجاع سذاجتي الأولى، أهبل سعيد خير من واعٍ تعيس، لكني الآن قد بلغت من الحكمة ما يليق بامرأة في منتصف العمرِ ليس بمقدورها استرجاع المذاق الأول للذات التي استنفدتها في شبابها.

3

تستقر القصص في قاع الذاكرة على هيئة سلسلة متشابكة من المواقف والأحداث، تتساقط منها الأيام العادية بتفاصيلها المتكررة والتي تتشابه في معظم حكايات الحب، وحده الحدث الاستثنائي يحفر طريقة في ذاكرة القلب ليجعلنا واثقين من أننا عشنا شيئًا مميزًا تستحق قصتنا أن تروى لأجله.

ما زلت أجهل سر ذروة فتنتي في مرآة حمامه المستديرة، أثناء ليلتي الأولى ببيته أطلت التدقيق لتفاصيل جسدي وأنا أتحسس تضاريس نضوجي الأنثوي بليفة استحمام فاحت منها رائحة كالتي نضح بها جسده وهو يضمني من الخلف بحفاوة بعد أن أزال الستر عن كدمات روحنا التي حجبناها بإرادتنا عن العالم الخارجي لكننا اخترنا أن نكشف عنها أمام بعضنا البعض. كنت قد تحسست جسدي على مر السنوات متسائلة بشغف عن هوية الرجل

الذي سيقطف أولى ثمرات نضوجي كامرأة بعد أن اكتملت أنوثتي التي أيقظها العجوز قبل الأوان، لكني دفنتها عميقًا في سرداب سري لا تطوله يد للحفاظ عليها خوفًا أن تستغل من قبل أحدهم في حالة العثور عليها مهزومة تحت وطأة ضغوطات الرغبة الملحة ومتطلبات الجسد الذي رفعت سقف احتياجاته مبكرًا للدرجة تجعل من كل رجل أعرفه مشروع خسارة أكيدة لجزء منها، فعادة ما تخاف الفتيات من أجسادهن حين تكتشف.

من هنا بدأت علاقتي بالجنون، عندما تلقيت دعوة منه إلى البيت قائلًا: «كلانا بحاجة لبناء علاقة أساسها الثقة لتحفيز إفراز هرمون الحب وهذا يتطلب مكانًا هادئًا وخاصًا».

سعدت كثيرًا بإلحاحه في طلب لقاء انفرادي يمكننا من البقاء بعيدًا عن أعين المتطفلين خاصة أننا كنا لا زلنا نخفي عن رقية ما نحيكه معًا خلف ظهرها، إن الحب يحتاج لمساحة سرية ليكشف عن نفسه بصراحة، لذلك عادة ما يمارس فعل الحب في الليل والظلام، تحججت لأيام لمقاومة تنفيذ الخطة كما وضعها حتى لا أحاصر في خانة اليك التي عادة ما يُحشر فيها المرء كلما بدأ شعور الإعجاب بداخله في التحول لمشاعر حب مجنونة تدخله في مغامرة لذيذة، لكن الغلطة بها تكلفه أعز ما يملك قلبه، بدوره سعى للتغلب على حججي الخاوية في محاولة لإثبات أن الحب وحده قادر على حمايتنا من التعرض لمزيد من الأذى، سأعترف أنني كنت سعيدة جدًا على إصراره ربما لأنها كانت المرة الأولى التي أفاجأ بسعي أحدهم نحوي

وتفضيله لي على فتاة أخرى لحد يدفعه لاحتمال تمنعي بصدر رحب دون أن يتضايق أو ينفر.

سرت في طريقي إليه حسب الموعد المحدد رغم ادعائي أنني مريضة بنزلة برد مزمنة، قلت: «لن أستطيع المجيء أخاف أن أنقل لك العدوى» رد متهكمًا: «لا تقلقي لن أقبلك».

فكرت في التراجع بعد وقوفي مترددة أمام بيته لكني لم أتراجع، كنت أشعر بالخجل والعار تجاه الرغبة الجامحة التي تركض في خلاياي وتتوق لحدث حميمي مثل أن يقبلني ويعريني ويمارس الحب معي بكل الأشكال، لذلك دلفت نفسي داخل العمارة، رحب بي الحارس الذي بدا لي أكثر مرونة مما تخيلته، فقد خشيت من أن يشكل سؤالي المتلعثم عن شقة هاشم علامة استفهام، لكني لم أرَ أثرًا للصدمة على ملامح وجهه فقد أخبرني بأريحية أنها في الدور الثالث وأشار لي في اتجاه الدرج.

تخيلت أثناء صعودي أننا ربما سنصعد معًا يومًا ما كزوج وزوجة، سرحت في دفء كفينا المتشابكين الذي كدت أقسم بأنني شعرت بحرارتها في جسدي الآن، وأنا أستعيد الموقف في ذاكرتي، صعدت ببطء كبير كي ألتقط أنفاسي التي كانت تزداد اضطرابًا هي ودقات قلبي كلما اقتربت من باب الشقة، راودتني فكرة مجنونة هي أن أدق الجرس بإلحاح كطفلة لكني لن أهرب، سأقف بجرأة أو بالأحرى ببجاحة وحين يفتح الباب وقبل أن يطلق شتائم تعبر عن تذمره من سلوكي المتخلف أكون قد أطبقت شفتيَّ

على شفتيه وحضنته بقوة وقلت له بدون تفكير: «هيت لك!»

كانت مشاعري ملتبسة للحد الذي أخفقت في التفريق بين الإعجاب والحب فرغم تشابهها في الهدف الأساسي وهو سعيك لأن يدخلك الآخر في دائرة انتباهه فإنهما يختلفان في الشدة التي تدفعك نحو الآخر، كان كلاهما يتمحوران عندي حول فكرة العطية، أن أعطي للذي يعجبني وبالتالي أحبه كل ما لدي بما فيه لحمي دون أن أطلب لما أهبه مقابلًا. في النهاية تراجعت فقد كنت في الواقع أقل جرأة وأكثر خجلًا من أن أفعل ذلك، اكتفيت بالتخيلات التي كنت أواسي بها تحفظي وأقوم من خلالها بعملية تنفيس مشروعة عن رغباتي الطائشة.

كانت الشقة صغيرة وتتميز بالبساطة والفوضوية في آن واحد لكنها تليق بشخصية رجل غريب الأطوار مثله. كان جوها ملبدًا بالدخان والمزيكا وأرضياتها ملطخة بزجاجات وأكياس فارغة تتعثر في أحدها كلما سرت خطوة.

تسلل بصوت ثمل إلى أذني بعد أن أزاح شعري المنسدل على وجهي وهمس قائلًا:

«أعرف أن الجحيم ألا يحصل المرء في طفولته على حياة أسرية مستقرة».

هز بجملته الصائبة كياني، إنه محترف في إيقاظ الجراح من غفوتها، فضغط على الدمل الذي ظل يكبر في داخلي، سعيت للخوض في تفاصيل حياته لأعرف ما هي المأساة الأسرية التي عاشها لتخرج جملة مثل هذه من فمه

فقد كنت من أنصار مقولة (إننا مرضى بقدر أسرارنا) والتي كنت واثقة من أنه أسير سر يعتبر السبب وراء حالة الانتشاء ولهجة الانتصار التي يتحدث بها عن كل النساء اللاتي أحبوه ولم يبادلهن الشعور، وعجزه عن الاستمرار مع إحداهن بعد تصريحها له بأنها تحبه، تعاطفت مع سلوكه الذي كان يستخدمه كحيلة دفاعية ومفتاح سحري للنساء خاصة ذات الأخاديد النفسية اللاتي يسرعن للعب دور المنقذات إذا أحببن رجلًا قرر أن يتبنى دور الجاني بعد أن طحنته الحياة لفترة كضحية، كان يقول إن الألم لغة لا يتقنها إلا من توحدت أقدارهم واختبروا العذاب ذاته وبالتالي تتوحد أجسادهم تلقائيًا بدون مجهود دون أن يقحم الحب نفسه في المعادلة.

سألني بعد أن تسللنا معًا إلى حجرة الجلوس ذات الطابع الحديث بأجساد نصف عارية:

«هل تؤمنين بالحب؟»

توسعت حدقة عيني بحماس بينما كنت أمسد شعري المتشابك:

«طبعًا، الحب موقف تصلك فيه رسائل مكثفة على مدار العلاقة أنك شخص جميل رغم عيوبك وأخطائك».

«إلى أي مدى بإمكان النساء تقديم التضحيات في الحب؟»

تنهدت بعمق:

«إلى النقطة التي لا يمكن لعقلك كرجل بلوغها، المرأة حين تحب تحمل

من تحبه فوق كتفها، تتلاشى مقابل أن يخلد، تضعه في المقدمة غير آبهه بتراجعها إلى الخلف، تحمل عنه واجباته وأعباءه وديونه، المرأة حين تحب تحترق من أجل حبها».

«من يسمعك يظن أنك أحببتي من قبل؟»

«تعجبني طريقة طرحك للأسئلة التي تجعل الشخص يتخفف من ثقل تأليف إجابات محبوكة لأنه يتحرر من الضغط النفسي الذي تضعنا فيه الأسئلة التقليدية بطريقة طرحها الخشنة كاستجواب، لذلك سأعطيك مرادك بلا لف ودوران، ما عشته لم يكن حبًّا، ولم تكن علاقة عاطفية كما تظن، أحيانًا نظن أننا غارقون في الحب فقط لأننا واقفون في مركز العلاقة وبمجرد أن نبتعد ونسير إلى الأمام نكتشف حقيقة ما عشناه وتتضح الرؤية رويدًا رويدًا لنتعرف على الوجه الأصلي للقصة كلما ابتعدنا عنها».

تراخى جسدي بجواره فوق الأريكة وكأني أصبحت مستعدة للاعتراف على نفسي ثم أكملت:

«عادة ما تكون التجربة الأولى آليتنا الرئيسية للتعرف على ماهية الأشياء عن قرب من خلال لمسها، في سن صغير تختلط الأمور والمشاعر والأدوار حتى ردود أفعالنا تصدمنا حين نعيد التدقيق فيها مع تقدمنا في العمر لأننا نكتشف مدى ضعف قدرتنا على إدارة أمورنا بتوازن ومدى قلة حيلتنا في مواقف لو عدنا إليها بوعينا الحالي ستتصرف بطريقة مغايرة لما تصرفنا بها من قبل!»

سرحت بعيدًا حتى أنني لم ألاحظ رده على ما قلته، تركت نفسي المرتبكة

تستعيد ما عايشته مع العجوز، شعرت بشيء من الضيق بعد أن كنت على وشك الوقوع في فخ التداعي الحر الذي نصبه لي بخبث، إنني أكره لحظات الاعتراف غير المحسوبة، التي تتفلت فيها أسرارنا بطريقة عشوائية تحت وطأة الحميمية.

رأيت أن من الحكمة ألا أخوض فيما يخص العجوز الذي سينحرني البوح بقصته أمام أي شخص، وستقتلني نظرات الشفقة التي أكرهها حين ترتد إليَّ كرد على مأساتي التي شعرت بأن السماء قد عوضتني لتخفف عني المشقة التي أحملها في قلبي، أو بالأحرى أن أقول وداعًا للقلق المتعلق بإحساس الذنب الذي أشعر به تجاه ذاتي بأنني لم أدافع عن نفسي وأتصدى لسلطة العجوز الجائرة ومنعه من الظلم الذي أوقعه عليَّ.

قفزت من مكاني، تجولت حوله في حركات دائرية غير منتظمة لبضع دقائق ثم جلست وأنا ألتقط أنفاسي:

«تكافئنا الحياة على الصبر فتهدينا مشاعر أرق من تلك التي أهدرناها لنكتشف أن ما مضى لم يكن حب العمر الذي تخيلناه بسذاجتنا لن يعوض، وأن ما مررنا به ليس إلا مشاعر عابرة مقارنة بعمق ما ننغمس فيه الآن.

إنني عشت ظروفًا صعبة، فقدت أبي في سن صغير، حزنت لأن الحزن رد فعل طبيعي للفقد الذي بسببه بحثت عن أب بديل، البعض يظل يدور لفترة طويلة لأيام وربما لأشهر أو سنوات بحثًا عن الأسباب والدوافع وراء إرتكاب خطأ ما ظنًّا منهم أنهم بحاجة لفرويد شخصيًّا كي يفك لهم شفرات اللاوعي ويغوص في دهاليز اللاشعور بينما لو أمعنوا النظر

لثلاث ثوانٍ بصدق في حياتهم سيعثرون على الدافع الذي يتجلى بوضوح كقرص الشمس».

التفت لي بعد انتهائه من لف سيجارة حشاها بحرفية، فوجئت بلمعة ما في عينيه وكأن حزن العالم قد اجتمع فيهما، مددت ذراعي وعانقته ثم قلت:

«ابكِ إن أردت فأنا لا أعترف بأن الرجال لا يبكون».

قال:

«أنا أيضًا فقدت أبي وأمي في سن صغير!»

أضاف بعد استعادته لتوازنه دون أن يذرف دمعة واحدة:

«أبي سرقه الموت وأمي سرقها رجل آخر».

صحت متعجبة وأنا أنظر إليه:

«تزوجت!»

أجاب ساخرًا:

«نعم، يبدو والله أعلم أنها لم تحتمل النوم في الفراش وحيدة بعد أن كانت قد اعتادت على يد تعبث بأعضائها ليلًا من تحت الغطاء، تتحول النساء لفروج متطلبة بعد أن تذوقن طعم النشوة مرة، فماذا عن امرأة تذوقتها لست سنوات!»

شعرت بالازدراء في كلماته التي خدشت كبريائي كامرأة ترفض هذا الأسلوب الفج، قلت بعدوانية:

«أتصور أنها لم ترتكب خطأ يا هاشم، حقها».

رد لا مباليًا:

«الخطأ أنها فرضت عليَّ وضعًا لن يحتمله طفل حساس مثلي».

«مع من عشت؟»

«معها وهذا أسوأ ما حدث، ترجيتها أن تتركني لجدتي لأبي، امرأة طيبة وبسيطة فقدت ابنها فتمسكت بي كما لم تتمسك بي أمي التي رفضت أن تربيني جدتي بحجة أنها لم تمت بعد لأعيش مع غيرها، إنني شهدت مراحل قبولها للقسمة غير العادلة على اثنين فأصبح النصيب الأكبر من حضنها لرجل أجبرتني أناديه بابا ظنًّا منها أنه سيعوضني عن غياب أبي الحقيقي الذي كنت أتخيل أن ما يعيقني عن احتضانه باب القبر الذي تصطحبني جدتي لنزوره بعد نسيان أمي له، ولولا وجودي المدمر الذي كنت أتعمده ليذكرها بأن أبي سيظل هنا طالما أني هنا، تسربت مني تدريجيًّا كل الامتيازات حتى سلبت نهائيًّا بعد إنجابها لطفلين شاركاني نسبتي الضئيلة منها، بدا شعوري تجاهها غامضًا ومخيفًا لا أعرف إن كان من واجبي أن أحبها لأنها في نهاية المطاف أبناء أمي وأخواي اللذان أتيا من رحمها الرخيص الذي أتيت منه، أم أكرهما لأنهما من الرجل الذي احتل مكان أبي المقدس وسرق أمي مني. لأقل إنني في نهاية الأمر تقبلتهما وتقبلته، طبعًا أرغمت على ذلك مثل كل الأشياء التي فُرضت عليّ واعتدتها بمرور الوقت وأهملت التفكير فيها كي لا أصاب بالجنون».

قاطعته لكي أطمئنه:

«أعدك ألا يلمسني رجل آخر غيرك».

«حتى إن لم نتزوج؟»

صمت قليلًا لأفكر بإجابة ليست المناسبة لي وإنما تلك التي يريد سماعها ليطمئن، فكرر سؤاله في شكل آخر: «الحب أم الزواج؟»

نظرت إلى عينيه مباشرة وأنا أتساءل لماذا دائمًا أقع فريسة للاختيار بين شيئين الحب أحدهما! لذلك لم يكن أمامي أي عائق لاختيار الحب الذي تمنيت أن أعيشه هذه المرة بإصرار، قلت:

«الحب أولًا».

اعتقدت أنني أكثر ذكاءً منه حين أعطي له حبًّا غير مشروط حتى لا أضعه تحت ضغط رغبتي في الزواج منه وكأنني أقايضه، قلت لنفسي إن الحب سيقوده عاجلًا أم آجلًا إلى الزواج، وأن الثقة هي الحرارة التي ستذوب تحتها عقدة الخوف التي تقف كحاجز ثلجي بينه وبين الحب، كل ما أحتاجه بعض الوقت الذي أستطيع من خلاله رتق الندبة التي تسببت أمه فيها دون عمد.

هاشم، الطفل المجروح الذي ما زال يبكي فيه لن يستوعب حقيقة أن الأمهات لا يفعلن كذلك في أبنائهن عن عمد، إنني نتاج تربية امرأة فعلت ما في وسعها من أجلي أنا وأختي، ربما هاشم لن يتفهم كم كان سيطارده شعور الذنب تجاه أمه لو اختارت أن تفني شبابها لأجله دون أن تفكر في

الزواج مرة أخرى لتحقق له الرغبة التي لطالما تمناها في أن تبقى له وحده! في كلتا الحالتين كان سيصبح ما هو عليه اليوم، إنني اكتشفت أن كلًّا منا يتبني الدور الذي يقتنع داخليًّا أنه خلق من أجله، حقًّا إن البيئة المحيطة والظروف تتدخل في بعض الأحيان لتورطنا في أدوار لا تشبهنا لكن في النهاية نحن من نقرر الاستمرار منجرفين وراء ما دفعتنا الظروف إليه. هاشم في طفولته سقط في دور الضحية وفي مراهقته تبناه حتى أصبح نقطة راحة عاش فيها وتعايش معها وأصبح التخلص منها يسبب ألمًا، ألم التغيير، ألم التمرد، الألم الذي لا يتقبله البعض جزءًا لا مفر منه من الحياة لإتمام عملية النضج.

تجنبت التطرق إلى تلك النقاط الحساسة التي تتعلق بجراح طفولته كي لا ينفر مني بشراسة فقد كنت على يقين أن عقله لن يستجيب لما أقوله، في الواقع لم تكن لملمة صورة أمه المهشمة في قلبه تهمني ولم يكن همي اختلاق مبررات وهمية لأواسيه كي أرد له ثقته المختلة في العالم،لأنني كنت أحيا داخل نفس الأوهام المدمرة لكن بسبب أبي، فرأيتها فرصة عظيمة لتتوحد قوانا فيربت كل منا على جرح الآخر لنسحق آلامنا ونرتقي بها معًا، سألته بنبره مرتجفة: «هل لي أن أعانقك؟»

سادت لحظة من الصمت الجليدي إلى أن قال بنبرة متأثرة:

«لم تكن أمي تعانقني لذلك كنت أستمتع بضربها لي فقط كي أشعر بلمسات أصابعها على جسدي».

سحبني من يدي فقاومته بخجل وأنا أبتسم كالبلهاء متسائلة: «إلى أين!»

في محاولة للتشويش على حماسي الزائد وخنوعي أمام رغباته المتهورة التي ظننت بأنها تأججت مرة أخرى لتعيدنا إلى الفراش من جديد.

جحظت عيناي حين تركني على عتبة باب الغرفة الذي ينتصب في الجهة المقابلة لخزانة الملابس والتي سار إليها مسرعًا حتى كاد أن يتعثر في طرف السجادة، جلس جاثيًا على ركبتيه ينبش في كومة ملابس بعد أن فتح الدولاب، أخرج منه صندوقًا مصنوعًا من الكارتون حمله بين يديه، أدخل يده في الكيس المرتخي بالصندوق وأخرج قميص نوم من الدانتيل المخرم محلى بشرائط ستان، بلون أسود، فركت عينيَّ وسألته باندهاش: «ما هذا؟»

رد بخبث متهكمًا: «الاحتفاظ بملابس عشيقاتي الداخلية ليس من هواياتي المفضله، إنه لأمي».

قلت بغضب: «وماذا يفعل هنا ولماذا تخبئه بين أشيائك؟»

أجاب: «إنها القطعة التي نامت بها في ليلتها الأولى بحضن زوجها الثاني، سرقتها من طبق الغسيل بعد أن وضعتها فيه وخبأتها لتكون دليلًا بين يديَّ ضدها يذكرني بخيانتها لأبي كلما نسيت».

كان لكلامه وقع مرعب على روحي التي بدأت أشعر بتصدع مفاجئ بها، أخذت نفسًا عميقًا كي لا أحكم القبض على ما تبقى من مزاجي الجيد، مددت يدي وأمسكت بالقميص الذي كان قد وضعه جانبًا وهو يتطاول بفجاجة على حميميات أمه وكأنه يسعى لتشويهها، شعرت بتعب وأنا أفكر

في أن أعرض عليه ارتداءه لتُمحى ذكراه السيئة إلى الأبد!

أخفقت في التنصل من هشاشتي ودفعت ضريبة اختيار الحب باهظة، ثمنًا لا يقل عن الذي دفعته حين اخترت مال العجوز فكلاهما سددته من رصيد كرامتي، أهملت الخسائر التي ألحقها بي حين اعتبرت وجوده معي أهم المكاسب وأكبرها على الإطلاق، أجاد منذ البداية استغلال قوانين اللعبة لخدمة أغراضه بخبث أما بالنسبة لي فلم تكن قصتنا لعبة لأستخدم فيها حيلًا عقلية توقعه في شباكي لأقاسمه بيته الذي كنت أتسلل إليه سرًّا لأسرق من الزمن ساعات أعيش فيها وفقًا لفلسفته الساحرة دون تعرضي للنقد الذي أكل من نفسيتي التي أتيحت لها على يده فرصة للتحرر من ضغوطات الذاكرة لفترة أعتبرها اليوم أسعد فترات حياتي، تطورت علاقتنا سريعًا بعد ذلك، أصبحنا ثنائيًّا غريبًا وانخرطنا في علاقة مريبة، لم يعرف أحد سبب ارتباطنا كتوأم ملتصق، سخرت من نظرات الاستنكار التي لمحتها باستمرار في عيون كل من يرانا، ظننت أنهم يحقدون على السعادة التي لم تفارقني لسبعة أشهر متتالية، كنت أردد بيني وبين نفسي: «حتمًا إنها الجنة»، حالة الكمال التي شعرت بها للمرة الأولى في حياتي حين امتزجنا وسمح لي بملامسة جراحه بعد أن كشف لي سره قبل قبلتنا الأولى، إن ما قبل تلك القبلة لم يكن سوى مشروع حب شفهي حولته شفتاه الغليظتان واللتين تسلل منهما إلى فمي طعم التبغ ممزوجًا بشيء من لعابه إلى أجمل واقع، ظللت أفكر ليلتها «كيف يصبح اللعاب الذي نمتعض منه في العموم لذيذًا وشهيًّا أثناء تقبيلنا لمن نحب!»

للحب الأول في حياة الإنسان وهجه، إنها القصة الوحيدة التي يتنازل فيها عن قلبه بحماس دون أن يدرك مدى خطورة فعلته، ليكتشف لاحقًا أن المشاعر التي تخيلها ستجعله مبتهجًا بشكل أبدي أقصر عمرًا مما تخيلها.

ولسوء حظي أنني كنت الطرف الأكثر حبًّا والأقل حنكة، الذي ترجم كل ما صدر من الآخر بشكل خاطئ ومتسرع، لأن في التوقيت الذي كان يعاملني على أنني أصبحت ملكه كنت أتخيله يتوق إلى حمايتي، وفي الوقت الذي كنت منشغلة بصنع توليفة الحب السحرية ليشفى من عقده كان بدوره مشغولًا بالتشويش على الوحش الفج الذي يعيش بداخله ليستمتع بجعلي أريده.

أعلنت النهاية عن نفسها تدريجيًّا بعد أن قال بعصبية مفرطة وهو ينظر في جهة لا تطل على وجهي الذي زهده: «نحن مختلفان».

قالها بقسوة تختزل الهدف من ورائها، ورغم إدراكي لما أراده، فرضت نفسي عليه في محاولة مني لعرقلة الفراق، رددت بحنو بالغ لم يزده إلا ازدراء: «التضاد لا يعني شيئًا في لغة النساء، وأنا أحبك، ما زال بإمكاننا البدء من جديد».

وصلت لمرحلة مهينة من الإذلال، ترجيته أن لا يتركني لكنه لم يبالِ بتدهور حالتي النفسية إلى الحضيض وقد رأى بأم عينه كيف تلاشت حيويتي تحت وطأة الضغوطات التي احتلت الغيرة الجنونية المرتبة الأولى فيها، أثارت بيننا مناقشات مترنحة ليس لها نتائج مجدية، تلاشت قدراتي العقلانية للتفكير بمنطقية، لم يتبق عندي إلا منطق الصراع الذي كان

يؤكد مدى حاجتي لمساعدة نفسية فقد كنت أعترف في لحظات الصراحة التي أنفرد فيها بنفسي بأنني مصابة باضطراب ما في شخصيتي فشلت في السيطرة عليه بمفردي مما أدى به إلى تزايد مستمر. تصالحت مع فكرة أن أكون مضطربة نفسيًّا فالمرض النفسي ليس عيبًا أو وصمة عار كي أخجل منه. لم أتردد في تنفيذ الخطوة التي كان لا بد أن يقدم عليها كل من أوصلوني بأفعالهم إليها. لكل جواد كبوة أما أنا فكان في حياتي قبل هاشم كبوتان، أبي والعجوز.

أول ما يراودك عندما تتخذ قرارًا حاسمًا للجوء إلى طبيب نفسي هو من أين يفترض بك أن تبدأ كلامك؟ كُل خطوة تسيرها في طريقك وصولًا للحظة التي تجلس فيها أمامه تتذكر أحداث حياتك بالتفصيل بعد مرورها أمام عينك كفيلم يجب عليك نقله بحرفية لشخص لم يره معك.

يتخيل البعض أنهم سيحركون جبل المعاناة عن أرواحهم منذ الجلسة الأولى لكن هذا لا يحدث على الإطلاق. إنها المرة الأولى التي تضطر فيها إلى أن تكون أمينًا فيما ستروبه دون بذل محاولة لستر أو تجميل أخطائك التي ارتكبتها مهما بدت درجة بشاعتها الخلقية، إنك تتجرد تمامًا من لغة الكبرياء لتقول بصراحة أمام شخص غريب يسمعك بمقابل مادي «أنا مكسور ومنهك القلب وقليل الحيلة وفشلت في إنقاذ نفسي من الورطة التي سقطت فيها».

تسقط الكلمات التي تخرج من فمك لتترك لسعات كالسياط على روحك.

بدت لي طرق النساء وعرة ومتعبة تحتاج لكثير من الإصرار والصبر للوصول إلى طرق أخرى أكثر أمانًا بعد أن نكون قد اختبرنا العذاب بألف شكل.

قال لي الطبيب: «يجب أن نمتن للخسائر التي تفسح لنا فرصة لاكتشاف أنفسنا».

لم أقتنع بما قاله بل واعتبرته سفسطائية فارغة كيف لي أن أتصالح مع الفقدان وأعترف بعجزي تجاه الأشخاص الذين ذهبوا من حياتي بإرادتهم بعد أن فتتوني نفسيًّا فأطلق سراحهم من ذاكرتي وأدعهم يذهبون في سلام متجاهلة الثقب الذي تسببوا لي فيه داخل روحي! كيف أسامح من دمروني!

والله لن أسامحهم أبدًا.

القسم الثاني

«العائلة التي أتيت منها ليست
بأهمية العائلة التي ستؤسسها».

رنج لاردنر

• I •

«كانت تعيش بين الناس كَنَبتةٍ نادرة
لا يدرك أحد الطريقة المثلى للاعتناء بها».

يحيى

«عندما لا يكون هناك عدو بداخلنا، فالعدو
في الخارج لن يستطيع أن يؤذينا».

"مثل إفريقي"

1

من فوق كرسي هزاز بغرفة مظلمة ببيت أمي أجلس وحيدًا، أرهف السمع لهمهمات روحي التي أصبحت مهينًا كليًّا لتدميرها بعد أن علمت بحكاية أمي التي حاولت إخفاءها عني بشتى الطرق خوفًا عليّ من السقوط في مصير كالذي كرست له أفكارها ونذرت له عمرها بعدما استحوذت عليها ضلالات ما برحت تعذب بها نفسها.

إنني لا أملك سلطة لمحاسبة أي الأطراف على ما ألحقه بالآخرين من أذى، فقد دفعتني الأحداث لأن أكون شخصًا ديموقراطيًّا يدعم المنظور الفردي والاختيارات الحرة للأشخاص حتى وإن قادتهم فيما بعد إلى التهلكة، إنني أمقت لعب دور الإله في حياة البشر وأتجنب نصب المشانق وتنصيب نفسي قاضيًا على تصرفاتهم، لكل منا حق السير في الاتجاه الذي يراه مناسبًا له، لكني أعترف اليوم أنني قد تأكدت أن اختيارات أمي التي ظننتها حرة

كانت محض عشوائية، فخ مهول أطاح بها وبنا إلى مصير مربك.

كان البحث عن خلاص فردي هو خطأها الجسيم الذي ارتكبته تلقائيًا، لو فقط أدركت أنها لم تكن في حياة أبي ترانزيت يستريح فيه من تعبه ثم يتجاوزه ويعود إليه حين تنهكه الأيام، لو أدركت أنها مركز لدائرتي الكونية وأنني كيان كان يتغذى على وجودها، أرعبه جلل حدث انفصاله المفاجىء عنها، ربما لو أتاحت لها الظروف فرصة لمعرفة كل ذلك لاختارت طريقًا مغايرًا عن الذي سلكته بناءً على الخبرات السيئة التي أكسبتها إياها حياة تغلغل الخلل في جذورها، لما أقدمت على الانتحار خوفًا عليَّ من انتهاج منوال اختياراتها الخطرة.

بفراقها لم أخسر أمي فقط، بل خسرت دنيا بأكملها، شريكة حياتي، والعينين اللتين كنت أتكور بهما كجنين داخل الرحم، والباب الوحيد الذي لا آبه بغيره من الأبواب الموصدة بإحكام طالما أنه ما زال ينفتح أمامي بترحيب لأجد خلفه المرأة الوحيدة التي كان يعنيها أمري ويعنيني أمرها. صاحبة عالم الأحلام السحرية الذي أفتقده بشدة كُلما اكتشفت أنه تلاشى منذ رحيلها وبأن بث الروح في بقاياه سيكلفني ثباتي النفسي الذي ليس لديَّ منه إلا ما يُبقيني حيًّا.

قالت لي ذات يوم وقد بهتت قوتها: «لا تكرر المأساة، انسني، أو تذكرني كعبرة، كلما لحت في ذاكرتك من بعيد قاومني واهزم كل ما يتسرب إلى حياتك من جهتي كي لا تموت مرتين حين تكتشف في نهاية حياتك أن

كُل السنوات التي ذهبت مع الريح ولن تعود، قد ضاعت في اللاجدوى وأنك تعيش حياة غير التي كان من المفترض عليك أن تحياها، وأنك حين فُقدت ضاع منك أكثر من شخص تمنيت ألا تستمر الحياة دونهم، أنك خسرت نفسك وليس أمامك طريقة واحدة لاستعادتها لأن جزءًا كبيرًا من كيانك ذاب كشمعة، ما تبقى منها لن يضيء عتمة روحك بعد أن أهدرت نورها لإضاءة الطرق التي لا أمل فيها، وأنك فشلت مثلي في كل الأدوار التي وكلتها إليَّ الحياة، من بينهم دور الأم لأبنائي الذين دمرتهم الواحد تلو الآخر، لن يشفع لي أن يكون قد حدث ذلك دون قصد، لكن المهم هي النتائج التي أراها الآن بوضوح، أن ابني الوحيد الذي فضل الاحتراق بجانبي لم أستطع حمايته بدفعه بعيدًا لنقطة أكثر أمانًا، فشلت أن أكون أمًّا له فادعيت أننا صديقان، جعلت منك صديقًا لأني كنت بحاجة لمن يلعب ذلك الدور في حياتي وكان عليك القبول بأي دور مقابل أن تكون بمحاذاتي، ورغم ذلك تجاهلت صرخة ألم محبوسة كنت أراها في عين الطفل الصغير الذي أنجبته وهو يتمنى لو يصرخ في وجهي وهو ينظر إليَّ باستجداء قائلًا أريد أمًّا».

كنت بحاجة لكثير من الإيضاحات حول وضع أمي التي ظللت لفترة أجهل الكثير عن حياتها، وبعد أن تخبطت في حالة انهيار شرعت بالتكون في داخلي ببطء، اقتحمت على أبي المكتب كان صوت البكاء يصعد مني تدريجيًّا كدخان نابع من روح تتفحم، شهقت شهقات متتالية اهتز لها جسدي،

فبدا أبي ككهل سيطرت عليه حالة من الذعر الجبار، ألقيت بنفسي تحت قدميه وأنا أردد كلمات مشتتة كنت أطلب منه أن يتحلى بالوضوح معي هذه المرة لأني لم يعد في وسعي تحمل ثقل التخمينات.

صاغت أمي حدث زواجها من أبي كنكتة هزيلة حين عبرت عنه قائلة:

«كان زواجي منه غلطة الشاطر التي تحسب بألف».

أضافت أنها أبدعت في خلق نوع من الانتحار الاستثنائي ليتناسب مع شخصيتها التي تكونت تحت تأثير الصدمات، وتمادت في مزج الحقيقة المُرّة بالمزاح الذي كنت قد أصبحت واعيًا بالقدر الكافي لتميزه، قالت إن نوبة الاكتئاب جاءتها يومذاك على هيئة قرار انهزامي بالزواج، كانت واثقة من أنها طريقة متميزة تتمتع بلمسه فنية تراجيدية أسمتها انتحارًا طويل الأمد وكانت واثقة من نجاحها فيما بعد.

لم يكن أبي وأمي مطلقين، كانا منفصلين، بعدما تكشف استحالة استمرارهما في حياة زوجية مشتركة خاصة بعد سنوات نضحت شخصياتهما بالتناقضات الكافية لأن يقتل أحدهما الآخر.

لأمي أفكارها الخاصة التي كانت ذات يوم السبب الرئيسي ليحبها أبي لكنها تحولت فيما بعد إلى عيوب تركها بسببها.

كانت طفولتي عاصفة، رومانسيًّا لدرجة مثيرة للشفقة. الابن البكري

والإسفنجة الوحيدة لامرأة غريبة الأطوار كما يليق بزوجة ثانية لأبي. أفضل ما شعرت به إلى اليوم هو امتلاكي لأم غير تقليدية، دفعتني دائمًا نحو ما هو مختلف أو بالأحرى متهور، كانت تجلس بجانبي ساعات لتعلمني كيف أعد النجوم، وكيف نربطها معًا بخطوط وهمية كي نصنع أشكالًا مختلفة.

كثيرًا ما تجولنا معًا فوق سطح القمر! وخارج الغلاف الجوي! بين الأشجار! الأغرب أنها كثيرًا ما تنصلت من صورتها كإنسانه لتتخيل أنها كائن آخر، غير بشري. كانت تكره عبء الجسد وثقله، تشبهه بالأسر، فرددت على مسامعي أن الخيال هو أرض الحرية ولا تحتمل شخصية عاقل متبلد، كأبي!

دون وعي منها غذت كلماتها الاضطراب بداخلي، إلى درجة أني أصبت بهوة ساحقة بين الواقع والخيال تسببت في فشلي الدراسي.

نصحتني نصيحة لله، هي أغرب ما يمكن أن تنصح بها أم ابنها، وإن كانت النصائح لا تتناسب أبدًا مع شخصيتها، قالت: «لا ترهق نفسك في بذل مجهود مضاعف مع مواد دراسية تكرهها، ولن تفيدك في النهاية بشيء!»

كم كانت نصيحة ذهبية بالنسبة لطفل في سني يتمنى لو يتهرب من الدراسة، وتصريح يجابه به من يتهمه بالتقصير مكتوب عليه: «ماما قالت!»

لم يسع أبي مكابدة الألم الذي تسببنا فيه أنا وأمي، فقد عانى التيه لسنوات بين كائنين اعتبرهما من المريخ!

تسببا له في تعاسة لا يدرك مقدارها إلا هو، وبدورنا رأيناه مغفلًا رجلًا عاديًّا لا يطاق، يجحد عطايا القدر له، زوجة وابن من فصيلة عبقرية نادرة!

حذر أمي من تحملها مسئولية دماري بتصرفاتها غير المسؤولة، تشجيعي للارتباط بألعاب أنثوية زادتني رهافة، اتخذت السخرية ملاذًا أمام تهديداته التي كان يلفها كحبل غليظ حول عنقها، كانت تتعمد أمامه مراوغة الوهن الذي يسيطر عليها في غيابه، تحشره بهدوء في عنق زجاجة فينصاع إلى الاستسلام أمامها.

هرولت مسرعًا لاقتحام عالم أمي الخارقة القوية غريبة التكوين، المرأة التي تظهر آثار الكسر، كانت تمقت كل ما هو نظري خاوٍ من الروح.

بدوت كالأبله في نظر زملائي حين طلبت مني المعلمة وصف أمي بكلمة واحدة، قلت بصوت بريء:

«أمي هي أبي».

لم تستطع المعلمة الحفاظ على جديتها فانفجرت معهم في الضحك، وعندما لمعت الدموع في عيني، خبطت بالعصا فوق الطاولة في محاولة منها لإنهاء حالة الهرج التي ساهمت بتلقائية فيها، سألتني:

«ماذا تعني يا يحيى؟»

التزمت الصمت، لم أنبس بحرف واحد، وجلست أنظر إلى الأرض

مواسيًا نفسي بقصة سيدنا نوح التي حكتها لي أمي مرددًا: «إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون»، لأهدأ.

2

الحافلة تقترب، مبنى المستشفى يلوح في الأفق، بدا كبيت ريفي ساحر تحوطه الخضرة، وأشجار الجهنمية وردية اللون تتدلى زهورها بغزارة فوق الأسوار.

لم يكن المشهد يستدعي الرعب الذي أتحسسه يركض في عروقي مُنذ الصباح، لكني لم أكن وحدي من يعاني من هذا الشعور وإنما الجميع، فزيارة مكان كهذا للمرة الأولى يكلف المرء الكثير من ثباته النفسي.

يفصل بين البوابات المغلقة بإحكام من الداخل والمبنى الرئيسي ممر طويل أرضه مصقلة بنوع رديء من السيراميك، صعدنا السلالم التي ولجت بنا إلى صالة الاستقبال التي كان بها أنتريه أسيوطي استرحنا عليه قليلًا حتى أتى إلينا الطبيب ليصطحبنا إلى الدور العلوي الذي به غرف النزلاء، حين رأيت ابتسامة العاملين هدأ روعي، لكني سرعان ما فقدت

أعصابي من جديد، فخلف الجدران أصوات تترنح، وصرخات تتعالى ممزوجة بضحكات هستيرية.

بدأت أشعر بدوار في رأسي مع كل تكة تصدر نتيجة دوران المفتاح في كالون الباب الحديدي لغرف النزلاء.

بدا قراري بشأن زيارتي لهذا المكان خاطئًا منذ البداية، فلم أدرك أن ما رأيته سيظل عالقًا بذاكرتي لينخر في نفسي كالسوس.

رؤية غرفة أشبه بالعنبر ممتلئة بالمرضى العقليين كالدخول حيًّا في مقبرة، هذا النوع من المرض مأساوي بكل تفاصيله، وسكان هذا العالم مختلفون وغريبو الأطوار، تصرفاتهم لا عقلانية في نظر من هم مثلي، رغم عدم تأكدي من أنني لا أعاني من خلل ما في عقلي.

رغم اختلاف وجوه النزلاء وحالاتهم أيضًا، ظل شيء غامض يومض في أعينهم كبريق يختنق يحمل الطابع ذاته الذي تحمله عين أمي.

اكتسحني شعور بالخوف من أن تكون نهايتها مماثلة لهم فتفقد ما تبقى من عقلها، ومع مرور الأيام تأكدت من أنها كانت طوال السنوات تزرع خلاصة تجربتها في عقلي لتعينني على استكمال الحياة بمقدار أقل من الخسائر خاصة أن شخصيتي أقرب ما يكون لشخصيتها قبل انسحابها كليًّا بالموت الذي لم يكن الخيار الأفضل بالنسبة لي، عادة ما يتقبل البشر فكرة بُعد أحبابهم بالموت لكن يرفضون نفس الفكرة إن كانوا لا يزالون أحياء، أما

عندي فكل الأوضاع سيان بل بالعكس موتها كان أسوأ ما حدث لأنه لم يكن قدريًّا، اختارته، للمرة الثانية قررت الابتعاد عني إلى الأبد وحرماني منها بطريقة أشد قسوة سلبتني من خلالها فرص سرقة ساعات قليلة بصحبتها وحق رؤيتها ولو من خرم الباب كما كنت أفعل وأنا صغير حين تغلق الغرفة على نفسها وتصرخ بهستيريا، عادة ما يحدث ذلك أثناء الليالي الجحيمية التي يزورنا فيها أبي ويأتي إلينا كغريب يؤرقنا وجوده أكثر مما يفرحنا، يلجأ لاستفزازها بالكلام عن مريم ومميزاتها كرد فعل على تماديها في التقليل منه وبث شعورها بالرفض تجاهه من خلال ردودها عليه باستهزاء والتي أتذكر أقواها وآخرها قبل انفصالهما إلى الأبد:

«أشفق عليك يا يوسف لأن حبي سيظل لعنة تأبى أن تحل عنك، كُلما أردت إثارة غيرتي استفززتني بمريم أو حدثتني عن مشروعية تعدد الزوجات، تزوج يا حبيبي، اجلب لنا امرأة ثالثة تشاركنا في الفحل الذي يبدد صحته فوق فراشين دون أن تشعر إحدانا بالرضا، إن كنت فشلت في إسعاد امرأتين فهل تعتقد إمكانية إنعاش ثالثة! اضحك يا عمري واقنع نفسك أن كل ما أردده هرطقات عشيقة سابقة أصبحت بمحض الصدفة أمًّا لطفلين منك وزوجة محبوسة في قفص، المومس التي لم ترضَ أمك على زواجك منها فانتظرت موتها لتفعل، واسِ نفسك بوهم أن الغيرة من مريم هي المحرك الوحيد لكل انفعالاتي معك وأن كرهي لك دليل على شدة حبي، أتعلم يا يوسف لماذا لن تتزوج أبدًا بعدي! لأنك حين تزوجت من مريم أخلصت لها سنة واحدة فقط، ثلاث مئة وخمسة وستين يومًا وبعد

موت أمك بيوم واحد فقط كنت هنا في بيتي، بيتنا تبحث عمّا أعطيته لك وفشلت هي بوهبك إياه، أتوقع عدد المرات التي استحضرتني فيها وهي تحتك فطلبت منها بالتزامها الصمت كي لا توقظك نبرات صوتها من تخيلاتك التي تجمعك بي وتلعب فيها هي دورًا حقيرًا كجسد بديل، من قال لك إن ممارسة الحب لقاء بين جسدين! نحن حين نمارس الحب يتلاشى الجنس نهائيًا، وحين تحدث الرعشة تستقر في القلب مخلفة بعدها شعورًا لا يوصف بالهدوء والتصالح وهذا ما كان يحدث بيننا، لذلك عدت من جديد لأن عينك كانت تصدم حين تنفتح فأتبختر أنا بحبي وتبقى هي بجسدها الباهت الذي تهبه لك بالإضافة إلى قلب أنت غير معني بامتلاكه، يوم واحد بعد وفاة أمك كان كافيًا لإيقاظي فيك بعد ما زالت العقبة الوحيدة لارتباطنا فلم تتردد وعدت باحثا عن الشيء الذي لم تزهده رغم نومك معي قبل زواجنا، ألم أقل لك إن الغبية هي من تعطي جسدًا؟ صحيح أنك أكلت من جسدي، حملت بداخلي نطفتين منك وزدنا البؤساء طفلين، لكنك لا زلت لم تشبع وكل تخبطاتك دليل على أن هذه هي الحقيقة».

كان ردًّا جريئًا صادمًا يشبه عالمها المتمرد الذي سرت إليه بشكل شيطاني دون حاجة لأكثر من الجينات لتغذيته، قليلًا ما صارح أحدنا الآخر بما يعانيه من ضلالات، لكننا كنا حين نصمت وننظر في عين بعضنا البعض نثق من أن كلينا يعرف معنى التخبط في غيابة جُب النقطة السوداء التي اكتسبتها هي تحت وطأة الألم وانتقلت إليّ عبر الجينات التي دعمتها بيئة أسرية غير مستقرة.

لم تكن أمي مجرد أمي، كانت إلهي الذي أستمد منه قوتي لذلك لم أبذل مجهودًا لإقناعها بشأن زيارة المستشفى، فقد بدت متحمسة لذهابي، قالت:

«إنها فرصة رائعة لترى الوجه الأسوأ للحياة».

كانت تعتقد أن كل المرضى النفسيين والعقليين في العالم ضحايا القبح، بشر بقلوب هشة ونفسيات أكثر رهافة من تحمل سيل القذارة التي اجتاحتهم بشكل أدى إلى تخليهم عن الحياة ورفضها بإيجابيتها وسلبيتها. بينما تلقى أبي الأمر باستهجان، فقد حذرني من طرق هذه الأبواب التي لن أجد خلفها إلا كل ما يتعسني مثل كيف تحولت أمي التي كان يشبِهني بها كنوع من الإهانة إلى حطام امرأة.

رغم استيائي من قسوته عليها في طفولتي، بدأت أعذره مع تقدمي في العمر عندما يسبها بأقذر الألفاظ حين أحاول فتح جرحه بأسئلتي عن علاقتهما وإصراري لمعرفة لماذا دائمًا يردد أنها لا تستحق الأمل الذي وضعه فيها.

قال:

«حين يدفعك الآخر للجنون، تبدو وكأن لا سلطان لك على نفسك وهي كانت معجبة بما يحدث، شيء في عقلها المريض كان ممتنًا بتعذيبي، أراهن أنها لم تجد في حياتها رجلًا اخترع لها مثلي من الحجج ليتسامح مع سلوكياتها المعطوبة التي تفاقمت لدرجة كادت تسد عين الشمس، فتمادت

في الضغط عليَّ ولم تشغل نفسها بالتفكير في المكان الذي سيتوجه إليه قطار علاقتنا ومستقبلكما أنت وأخوك بعد نفاد رصيد الأعذار وربما الحب».

أطلقت له العنان ليتحدث فأضاف:

«عندما تكبر قليلًا ستحصد الحكمة من تجاربك الذاتية حول الحب، ستفهم أنه حين يتحول إلى حفلة تعذيب يسعى المرء للتخلص منه قبل أن يتآكل داخليًّا بشكل يصعب ترميمه، وحدهم الأغبياء يتجرعون الذل باسم الحب.»

تأملت كلامه بموضوعية فاقتنعت، كنت واثقًا من أنه يحبها لدرجة تجعله لا يجرؤ على سبها وجهًا لوجه وأن ما يقوله في غيابها تنفيس لطاقة الغضب، لأنه كان أمامها يتحول لحيوان أليف، كل ما يحتاجه أن تمسح بيدها على قلبه لتمحي آثار الغضب منه ليسامحها، لكنها كانت تركله كل مرة بلا رحمة لتعاقبه على ذنب قديم.

استبدل بها أخرى، لكنه رفض بعنف قناعتي باستحاله نجاحي في تقليده، أمي بالنسبة إليه امرأة أما لي فهي أمي التي لا يمكنني انتزاعها من وعيي مهما بلغت من السوء والتطرف حتى وإن كانت المرأة التي اختارها أبي لتلعب دور الأم البديلة بعنفوان مريم زوجته الأولى، ففشلت معي لكنها أحدثت تأثيرًا هائلًا على حياة أخي حمزة الذي بفضلها عاش طفولة طبيعية تخلص فيها من لعنة جينات أمنا التي جاهد أبي لذرع بذور الكره والقسوة في قلبينا تجاهها بتماديه في تكرار جملته المسمومة على مسامعنا:

«تخلت عنكما بإرادتها».

نجح الأمر مع حمزة واعتبرها وعاء خاويًا حمله لمدة تسعة أشهر، لا قيمة تزيدها عن الرحم الصناعي فتجاهلها قلبه الذي لم يعترف إلا بأم واحدة يكن لها الحب والامتنان هي «مريم».

لم أتطلع للمستحيل أو لقطف ثمرة من أشجار الجنة، كل ما تمنيته أن يتركني أبي لأكبر في ظل أمي التي أستمع إلى حكاياته المشينة عنها بقلب مجرد. حلمت بأن أستيقظ صباحًا على وجهها مثلما كان يستيقظ هو على وجه أمه والذي يقتلني حديثه عنها بعد أن يتحول لطفل ينتحب كلما قادنا الكلام لسيرتها. أمي لا تجيد اللعب على هذا الوتر الحساس لديه ولا تتردد لثانية واحدة في الإفصاح عن كرهها لجدتي التي كانت سببًا رئيسيًّا للخراب الذي لحق بعلاقتهما هي وأبي، فكرهتها من تلك الحكايات، حين كنت أعيش غربة في بيت زوجة أبي وأحن إلى حياتي القديمة مع أمي تمنيت ألا يسامح الله جدتي لأبي، الموت لم يجعلني أتعاطف معها بل بالعكس، تمنيت أن تحرق بقاياها في قبرها مثلما كانت السبب في حرق قلب أمي التي فهمت فيما بعد أنها عانت صراعًا لا ينقضي منذ نعومة أظافرها إلى بلوغ أنوثتها. لا أعرف الكثير عن طفولة أمي لأنها تجنبت الانزلاق في الحديث عن تلك النقطة، لكن تبين لي أن الأسهم الربانية التي أصابتها كانت كثيرة وقاسية لتصل بها إلى مراهقة عاصفة كالتي عاشتها وروت لي بعضًا من تفاصيلها المؤلمة.

3

في طفولتي كان لدي ميل فطري للتحديق في السماء، شعرت بغموض مربك خلف الأفق يحتم عليّ السعي لكشف ماهية الأمور المستترة التي كانت تفوق قدراتي العقلية في ذاك الوقت، اليوم بعد أن كبرت واكتسبت من الوعي قدرًا لا بأس به للكشف عن حقيقة الأشياء لن أدعي النجاح في حل الألغاز المحيرة التي مزقتني في صغري وأهمها أنني لا زلت أجهل وجهي الأصلي فلطالما كنت كالعملة المعدنية بوجهين ينتمي أحدهما لأمي والآخر لأبي.

أخذتني الحياة من عاداتي القديمة إلا عادة طرح الأسئلة بإلحاح، وكبرت كُل أشيائي الصغيرة بما فيها الصوت المحموم الذي كنت على أهبة الاستعداد لارتكاب أي جريمة فقط كي أتحرر من عبوديته.

سأبدأ من هنا، إنها نقطة لا يمكن إغفالها، الصوت المرعب الذي ظل

يعلو باستمرار في داخلي منذ أن كنت في سن الخامسة، كنت حينها طفلًا كثير الشرود، أحدق في فراغ شاسع تتقافز فيه أفكار غير منطقية ولا تتلاءم مع عقلية طفل، فأبدو هادئ المظهر، لكني مضطرب الجوهر في داخلي تدور حوارات ومخاوف لا تنتمي لأرض الواقع، لا أبطال لأساطيري إلا أنا وعرائسي البلاستيكية التي تجلبها لي أمي ويعترض عليها أبي لأنه اعتقد أن مثل هذه الألعاب الأنثوية لا تتناسب لتنشئة رجلين في المستقبل مما أدى إلى تعرضي لنقد مستمر من قبله أدى إلى نشوب مشاجرات تسببت في انشطار بيتنا إلى فريقين أمي وأنا، حمزة وأبي.

هذا الانقسام ضاعف القيود حولي فتلاشت حالة الصفاء الروحي بتمزقي الدائم بين غرب أمي وشرق أبي، أرى نفسي لست بكم البشاعة التي يهول أبي بنعتي بها عندما يردد وهو مستاء قائلًا:

«سيغضب الله عليك لرفضك أوامري».

يبالغ في تضخيم هفواتي الضئيلة وتحويلها إلى كوارث بالغة الخطورة تهدد استقرار صحته فيظل سكر دمه وضغطه في رحلة صعود وهبوط لدرجة جعلتني أشك بأن يكون لي يد في إحداث ثقب الأوزون!

أيقنت أني من الخالدين في جهنم وبئس المصير، لكن مواساتي الوحيدة التي هونت عليَّ إحساس الذنب نسبيًّا كانت في فكرة أنني أتبع منوال أمي وذلك يعني أنها لن تتركني في الجحيم وحدي، زرعت بداخلي قناعة منافية لتلك التي سعى أبي لزرعها حين قالت:

«البعض يخطئ من فرط صلاحه، إن الشيطان لن يتعب نفسه في إغواء من باعوا أنفسهم له».

راقت لي مقايسها الفضفاضة التي بناءً عليها اعتبرت نفسي واحدًا من عباد الله الصالحين الذين يلازمهم الشيطان خوفًا من استقامتهم، كنت في عالم أمي أبدو جميلًا واستثنائيًا فأحببت المكوث هناك للأبد كان الحب عندي مرادفًا للاحتواء وإمكانية الاعتراف بالأخطاء دون خجل أو خوف لذلك ظننت أنها تحبني أكثر منه، إنها لا تدفعني للتبرير المستمر مثله كما أنها لا تطلب مني أن أكون كائنًا مثاليًا من خلال طلبات تعجيزية كالتي يطلبها هو وفيها بعد ألحت بمثلها مريم ـ زوجته الأولى ـ عجزت عن حبها رغم أني لو لم أكن واثقًا من أن الله لم يخلق إنسانًا بلا عيوب لأقسمت أنه خلقها كاملة بلا نقصان وقد كانت مثاليتها السبب الرئيسي لعدم تحملها، أن تسكن بيتًا واحدًا مع شخص بينه وبين الملائكية خطوة إحساس مريب وكأن القدر اختصك لتعيش ظاهرة كونية نادرة الحدوث، أو كأنك أعطيت دور الوحش في أسطورة الجميلة فأصبحت مطالبًا بالانفصال عن طبيعتك تدريجيًا لاكتساب صفات التحلي بها عبء لك لكنه ميزة للآخرين، صدقت أمي حين قالت في نوبة من نوبات هرطقتها:

«المثالية ووهم الكمال أخطر الأمراض على البشرية».

لم أصدقها وبدلًا من أن أخبرها برأيي أومأت لها بالموافقة رغم عدم استيعابي المغزى من كلامها، لكني مع مرور السنوات فهمته بتجربة حياتية

عاقبني بها القدر على استخفافي بهرطقاتها الرائعة.

تحولت علاقتي بأبي إلى حرب لا أعرف ماذا أحارب، لكنني اتخذته خصمًا يجب الانتصار عليه ومعاندته بشتى الطرق بسبب شعوري الدائم برفضه لي مما جعلني أكبر على يقين داخلي بأنه يحب أخي ويكرهني. السخرية اللاذعة هي أهم الآليات التي اكتسبتها من أمي في خوض معارك من هذا النوع والتي لا يمكن للطرف الآخر التعامل معها إلا كإهانة تستتر في شكل مزحة ماسخة تؤدي إلى تزايد الوضع توترًا لتبدأ المرحلة الأكثر وضوحًا في تبادل التهم التي يرميها كل منهما على الآخر بواسطة التراشق بالألفاظ والتقليب في الدفاتر القديمة وهواية نشر الغسيل المتسخ على الملأ، فينتهي بهما المطاف إلى أن يهزم كل منهما نفسه ولا يهزم الآخر وكأن كل الخلافات التي تنشأ بينهما مجرد خلل بسيط في قدرتهما على التواصل، لكننا سقطنا أنا وأخي كضحايا لحروبهما ويبدو أننا أدلفنا فيها قدريًّا كطرف بدون أي إرادة منا كوننا أبناءهما.

ظل شبح الصوت المحموم المحرك الأساسي لحياتي، كان يحذرني من وجوه الغرباء ويدفعني إلى تجاهل أي حديث موجه إليّ من أشخاص خارج دائرتي الحميمية جدًّا المتمثلة في أمي ثم أمي ثم حمزة ثم أمي ثم أبي. ظل ذلك الشبح يأكل يوميًّا جزءًا من استقراري النفسي ففقدت الكثير منه بسبب الخوف المفرط الذي تفوق على كل الأحاسيس الأخرى بعد أن أصبحت أيامي عبارة عن بالون خوف، أصبحت أخاف من غروب

الشمس والظلام، الأصوات المرتفعة، ومواء القطط المستمر، مما أرغمني على الالتصاق المضاعف بأمي والذي كان يفسد مزاجها لكونها غير مؤهلة كليًا لاحتمال هلعي الذي يربطني ارتباطًا عنيفًا بها لأنها الشخص الوحيد الذي يختفي الصوت بصحبته.

ظن أبي أن ما أدعيه حجج واهية للتهرب من المدرسة التي فشلت في تقبل ذهابها كُل صباح خوفًا من أن أعود فلا أجد أمي بالبيت، شعور هدام ألا يتوقف خوفك من فقدان أمك التي تجسد في حياتك أهم مصدر للأمان، فتستيقظ من نومك ليلًا لتضع يدك الصغيرة فوق قفصها الصدري لتتأكد أنها ما زالت تتنفس. لقد عانيت بشكل مرضي لم يستوعبه أحد من هاجس فقدان أمي بالموت أو حتى بالتيه منها مما أعتبره الآن مؤشر واضح كان يحتم عليهما الالتفات إليه باهتمام عوضًا عن تنازل أمي لحرية التصرف بخصوص هذا الموضوع لأبي، فقد كانت عادة ما توكله في الأمور التي تحتاج صبرًا نظرًا لثقتها في قدراته الخارقة على إدارة الأزمات.

أخلف الخوف ميعاده فأصبح يهاجمني ليلًا، فأستيقظ من نومي أرتجف من الفزع بعد أن تسري القشعريرة في جسدي، فأسرع إلى غرفة أمي التي قال أبي إنني كبرت على النوم بجانبها خاصة بعد ولادة حمزة الذي أصبحت له الأولوية لارتكاب مثل هذه الحماقات الطفولية، لكني لا أتردد في ارتكابها بعد فشلي في ترويض مشاعري، لم يتوانَ أبي عن طردي من الحجرة رغم البكاء الذي أنثره في الجو مترجيًا إياه أن يتركني بجانب أمي ولو قليلًا

لكنه كان يتصرف كأنه لا يسمعني. أنا الطفل الذي يقف ليلًا على باب حجرة نوم أمه المغلق منفردًا بمخاوفه دون أن يدري ما الخطأ الذي ارتكبه ليلقى بجسده الضعيف بعيدًا عن أمه بهذه الطريقة التي تتناف مع كل قواعد الرحمة الأبوية!

فأتكور على بعضي بمحاذاة الباب وأنام بعد فقداني الأمل في إدخالي، أتنصت على مشاجراتها التي اكتشفت منها طبقات صوتية توظفها أمي للاعتراض على ادعاءاته أن ما أعانيه ترف مفرط، قرر بدوره التصدي له بمنتهي الحزم مما أدى إلى تأزم أوضاعي النفسية.

اقترحت أمي أن نتعاون في إجراء بحث نستخدم فيه زملائي من خلال إخضاعهم لاستبيان يعرفنا إن كان بينهم من يعاني من مثل ما أعاني منه، لكننا صدمنا أني الوحيد من بين أربعة وعشرين تلميذًا يعاني اضطرابات في النوم! ابتسمت لي أمي ابتسامة تقطر بالألم ثم وعدتني وهي تحتضنني برقة وتقبلني في منتصف جبهتي بحنو أنها لن تسمح لأي قوة في العالم بانتزاعي منها في الوقت الذي أريد حضنها فيه، طلبت مني أن ألقي عليها حِمل إقناع أبي بمكوثنا ليلًا في سرير واحد أثناء الأيام التي يقيمها معنا بالبيت، وأنها ستدبر الأمر لتفعل كل ما يساعدني لأتخلص من خوفي وأتغلب عليه نهائيًا.

يبدو أنها كانت فرصة ذهبية أتتها على طبق من ذهب لتنفصل عنه في الفراش فتعاقبه عقابًا مؤلمًا، في حياتنا اليومية، لم أرها تسعى إليه، لا تلمسه

لا تقبله لا تعانقه والغريب في الأمر أنها بطبيعتها ليست امرأة باردة لكني أعتقد أنها كانت تتعمد إيذاءه مما يسعدني وأنا أراها توقع عليه عقوبات لن يحتملها فقد كنت أعرف مثلي مثل الجميع وأولهم هي أنها نقطة ضعفه، أنها لم تتحمل عني عبء إقناعه بإقامتها معي في غرفتي وأن العبء الوحيد الذي فرض على شخص تحمله كان قد فرض على أبي! أمي لا تستأذن قبل قدومها على شيء، إنها تتخذ القرار من تلقاء نفسها وتلقي بتبعاته عرض الحائط.

كنت أغفو بهدوء في الغرفه الممتلئة برائحتها، بعد أن تقص لي حكاياتها والتي عودتني عليها وظلت لآخر وقت تمثل أهمية بالغة في حياتي لأنها لم تكن عادة طفولية قد عودتني عليها وانتهت، بل بالعكس إننا استمررنا هكذا هي تروي وأنا أسمع مع اختلاف صنوف الحكايات بعد أن كبرت، فقد تحولت قصص الشاطر حسن والسندريلا إلى سير العظماء والبشر الاستثنائيين مثل المسيح والرومي وكردجيف.

في أحيان قليلة يتولى أبي دور الراوي وغالبًا ما كان يحدث ذلك حين تترك أمي البيت لأيام لا يعطيني فيها إجابه مطمئنة على سؤالي إن كانت ستعود إلينا أم لا؟

كانت الحيرة بادية على وجه أبي الذي لم يكن بالقسوة التي أفرط في معاملتنا بها بعد انفصالها، فقد كان دائمًا ما يقدم لها مبررات أمامي، يقول إنه من الأفضل تركها تفعل ما تشاء إلى حين تسترجع طبيعتها، يداوي

أبي جراح رجولته التي نحرت على يد اعتلال أمزجتها وطباعها الحادة المتناقضة إذ تارة تكون سعيدة وتارة أخرى تصبح كئيبة فيدعي أن ذلك بالتحديد ما صنع منها امرأة جذابة لآرائها المجنونة كما لأنوثتها مفعول السحر، امتلكت قدرات للعصف بقناعاته وتوجيهه من جديد في الاتجاه الذي يحلو لها، وتلك الميزة هي ما جعلتها المرشحة الأولى أثناء دراستها الجامعية لتقديم ندوة مهمة، حضرها أبي كغيره من آلاف الطلاب لكن ما ميزه ووضعه تحت ضغط نفسي تعذر عليه كبحه أنها صوبت نظراتها تجاهه كسهم يعرف طريقة لبلوغ الهدف، فسارع للهرب من شراك قدر كان قد كتب بداية القصة منذ ذلك اليوم.

في اليوم التالي فوجئ بها تنتزعه من بين أصدقائه بجرأة بعد عبورها الممر الطويل سيرًا في اتجاهه، استأذنته في خمس دقائق ليتحدثا على انفراد وقالت:

«أمس كانت عيناك زائغتين ونظراتك مشتته، أما اليوم فتبدوان لامعتين كبرق يخطف الأنظار».

ألقت كلماتها كتعويذة سحرية ستجلب لها مبتغاها دون جهود إضافية فلم تنتظر منه ردًا، سحبت من يده كتابًا وخطت على صفحته الأخيرة رقم هاتفها، خاف من تحطيم السعادة التي لوحت له بتراجعه عن خطوة الاتصال بها، حبل الغواية التي ألقته بحرفية ظل يسحبه من عنقه نحو قدميها، اقترب منها باندفاع مراهق سعى لتمثيل دور الرجل الناضج بسذاجة غير متناهية،

سرًّا كان يعرف أنه رجل عادي أقل حنكة ممن هم في سنه ليجذب فتاة إليه، لعبت سياسة القطيع دورًا هامًّا في تنشئته وأفقدته متعة إقامة علاقة عاطفية. وكانت هي في نظر الناس مريضة نفسية تتسلل سرًّا إلى المصحات لتتعافى من كونها «كلبة هاشم» كما لقبوها، فتخرج وتنتكس ثم تعود لتسير نفس الطريق من جديد، لم ترَ عيبًا فيما كان يحدث لها لذلك كانت تعترف به أمام الجميع بأريحية بينما لم يكن الأمر مقبولًا. شعرت من خلال نظرات التجهم الموجهه إليها أنها مرفوضة كأنها جرثومة يبتعد الناس عنها خوفًا من أن تصيبهم عدوى المرض النفسي أو بالأحرى الجنون، لم تعترف لهم أنها مجنونة ولم يقل لها الطبيب هذا من الأساس، عانت من حياة صعبة وقدرتها النفسية ليست بالقوة الكافية لتصمد أمام العاصفة وتواجهها، فاعترفت دون مكابرة أنها بحاجة لدعم ومساعدة مختص! ما الخطأ الذي ارتكبته! سؤال رددته باستمرار وهي تتآكل داخليًا من شعور الرفض كانت واثقة أنها لم تقترف أي سوء في حق أحد فيما عدا نفسها، وصلها عبر أبي وغيره الكلام الذي يقال عنها خلف ظهرها، حكت على لسان أبي الذي نقل عن لسان حبيبة صديقه:

«تحب ليلى! مستحيل! لماذا! لا أحد يعرف معلومات عن عائلتها وهي تتعمد الإخفاء. لا تذهب إليهم في الإجازات الأسبوعية مما يدل على شيء مريب يا يوسف، كما أن الجميع يعرف أنها كانت نزيلة في مصحة نفسية، هي من قالت هذا بلسانها والآن تتردد على عيادة لتستكمل العلاج وطبعًا

لا يخفى عنك السبب لأني لا أعتقد أن في الجامعة شخصًا واحدًا لا يعرف قصتها مع هاشم، الذي كانت تتقبل منه أحقر أنواع الإساءة لدرجة أنه ضربها لتحل عنه ولم تفعل حتى ترك البلد ورحل بسببها».

اعترفت أمي أنها شعرت بغصة تخترق صدرها بعد ما قاله أبي رغم أنها تعرف جيدًا أن هذا ما يقال عنها! وسألته «لماذا تحكي لي الآن يا يوسف؟»

لم يرد، شعر بالإحراج، بدَّل الموضوع تحدث في أشياء فرعية وجارته في الكلام لكنها كانت تفكر في السبب الذي دفعه ليروي لها كلمات ربما يكون لها أثر مدمر عليها، تركته وذهبت للبيت وهي في قمة عصبيتها تتساءل مستنكرة:

«لماذا يصر الناس على الحديث في أمور لا تعنيهم، لا بيانات كافية في يدهم ليصدروا حكمًا عادلًا عليّ، كان دافع واحد يجعلني احتمل إهانات هاشم، سببًا واحدًا لم يصدقه الناس وهو أنني كنت أحبه. قلوب ملوثة بشكل مرعب لا يمكنها تصديق أن يكون الحب هو السبب الوحيد لاستمرارك مع شخص يهينك على أمل أن يتغير. هذا ما دفعني لأن أصبح عدوانية يا يحيى، وكيف أن أكون ودودة مع من ولوا أنفسهم قضاة ليحكموا بالإعدام على الضحية وترك الجاني وكأن سوء سمعته عذر يتقبلون به جرائمه تجاهي أو تجاه غيري، صحيح كنت أتلقى العلاج النفسي أو ربما كنت مريضة نفسية كما يصفوني، لكني حين أعدت الحسبة من جديد وبشكل صحيح وجدتهم

أشد حاجة للعلاج مني، الحب آلمني بينها هم اقتاتوا على الكره والأحكام المطلقة والحديث في سمعه الغير بلا أي أعراض جانبية ودون أي شكوى من أي اضطراب! فترى من منا يستحق أن يصنف كمريض!»

دفعتها الأحداث لعقد صفقات خاسرة مع الرجال ضد نفسها ومرت عليها سنوات من التخبط عجزت عن احتمال الحياة بلا حبيب أو صديق، وبفعل التكرار جبلت على شكل معين من العلاقات جلبت بها الفوضى لحياتها مما أفقدها الوضوح، أصبحت مراهقة متاحة بلا شروط، ففقدت السيطرة على وضع دخلته بإرادتها، علمًا كانت أيقونة للتسكع والزعامة الأفرودتية، وهذا ما يحدث عندما نتبنى آراء الناس فينا والتي ربما تعكس لنا صورة مغلوطة عن أنفسنا، رأت نفسها في مرآتها كعروسة ماريونت يحركها الناس وفقًا لأهوائهم. ألقت بنفسها في علاقات كمن يلقي بجسده أمام سيارة مسرعةٍ فوقعت تحت عجلات من فرمها بمركبات نقصه ومن طحنها بالجنس، ومن عصرها ماديًا، وآخرين عاملوها وفقًا لمبدأ (إللي ييجي منك أحسن منك).

إن خوض هذه التجارب لا يقرب الإنسان من ذاته بل إنها تحفر بئرًا يصل من العمق ما يحيل بين المرء وكيانه.

أدمنت الحب وأن تكون مخمورة بعالم شخص آخر تستخدمه كعقار يفصلها عن عالمها الموبوء، لتجد نفسها مثقله بأدق تفاصيله من أول نوع كريم الشعر الذي يستخدمه إلى نوع ملابسه الداخلية التي ترتاح بها خصيتاه.

استفسرت منها عن تأثير الخدر الداخلي الناتج عن تناول جرعات حب مكثف أجابت بما يلي:

«ممتع ومريح، يؤدي للتوهة المطلوبة».

مرت سنوات من التزامها بتناول الرجال بصفة منتظمة، حينئذ بدأ صوت بريء بداخلها يستغيث، الصوت الذي كان يفرض نفسه عليها في اللحظات الحرجة، لأنه دائمًا ما كان يشكو إليها منها ومن خيانة الذات للذات بكل السلوكيات التدميرية التي تمارسها مع نفسها، إنسانيتها كانت تسير نحو الانقراض بعدما أصبحت تتناول أكثر من رجل في آن واحد.

عجزت عن وصف حالتها لكنها بعد هذا الاعتراف المشين قالت إنها شعرت أن ورطتها تتضاعف وبأن صوتًا آخر بداخلها نصحها بالخروج من المأزق بأقصر الطرق وهو الإفراط في السير نحو يوسف، أبي.

لم يكن الاستماع لاعترافات كهذه من أمي أمرًا هينًا وليس من شأنه أن يخلق إنسانًا سويًّا، البيوت التي تشبه بيتي والأبوان اللذان يشبهان أبويَّ لا يخرجون للعالم إلا شخوصًا مختله سيكوباتية ومعقدة مثلي أو بالأحرى مثلنا جميعًا، ألسنا في النهاية من نسل القاتل قابيل!

• II •

«تبـدأ قصتنـا الجديـدة من حيث انتهت القصة القديمة».

يوسف

جاء رجل إلى حكيم وقال له:
«إني تزوجت امرأة وجدتها عرجاء، فهل لي أن أردَّها؟»
فقال له: «إن كنت تريد أن تسابق بها فردَّها».

1

بيد أني لم أكن الرجل الأول في حياتها كانت هي المرأة الأولى والحب الوحيد في حياتي. ابتدأت علاقتنا كصداقة قوية سرعان ما انقلب لحب من طرفي، فاكتفيت بعلامات الإعجاب التي كانت ترسلها لي في بعض الأحيان، فقد كان وجود رجل مثلي بالقرب من حدود هالتها العجائبية، معجزتي التي آمنت من خلالها بأن زمن المعجزات لم ينتهِ بعد. في حياة كُل رجل منا حدث خارق يؤمن من خلاله بأن آية آدم العظيمة لم تكن في وجوده بالجنة أو سجود الملائكة أمامه بل كانت في خلق حواء، وأن الله خصه بالعيش مع تلك التي كان واثقًا بأنها خُلقت من ضلعه.

اكتسبت منها عادة ربط ما أشعر به باقتباس يعبر عنه لذلك حين أفكر بمشاعري تجاهها يردد عقلي بشكل تلقائي مقولة السيد المسيح «ليس منا من لم يولد مرتين». فأبتسم بألم متكئًا على الصمت لعلمي أن تلك الآلام

لن تشفى إلا بعناق طويل يطفئ نيران روحي.

عزائي في الأيام الصعبة التي مررت بها أني قد ولدت على يدها مرة أخرى، فأصبحت بفضلها الشخص الذي تمنيت أن أكونه منذ ولادتي الأولى بعد أن عشت سنوات من عمري متبنيًا شخصية لا تمثلني، فقد أنجبتني للحياة كرجل ناضج له تجربة خاصة جدًّا في عالم الحب.

كان ما بين حياتي التي عشتها قبلها وحياتي التي عشتها معها هاوية دفعني التهور الذي يضيفه الحب على شخصية المرء بعبورها بعدما تنازلت عن كل أفكاري المسبقة التي وشمت على شخصيتي بواسطة بيئة أسرية صلبة وشكليات اجتماعية مدمرة لم أرَ قط أنها تناسبني وجاءت هي لتخلصني منها بفضل استثنائيتها، ربما كان بإمكانها أن تطور ما في قلبها تجاهي لأتحول من كوني الرجل الثاني في حياتها إلى حبها الأخير لكني لم أساعدها بما يكفي، فقد كنت أصدمها بترسبات الشخص الذي تكرهه في أعماقي والتي جاهدت لتغيره وفشلت لأنه في نهاية المطاف كان جزءًا لا يبتر مني.

غريب أمر الحب، والأغرب الاستسلام له وعدم الرغبة بمقاومته، كيف يسمح شخص لشخص آخر أسره بإرادته دون أن يسعى لعرقلة الحدث! كيف يقبل كل الأشياء غير المقبولة والتي لم يكن يقبلها لو كان في وضعه الطبيعي! ما نوع هذه القوة؟ وما مدى خطورتها؟! أسئلة كثيرة تخص الحب لن تجد لها إجابات مقنعة إلا إذا تعرفت عليه بنفسك. وهنا تكمن خطورته، لأنك ستصبح كمن يجرب الشيء من أجل رصد حقيقته،

ودخول الوعي كطرف في الموضوع سيفسد من تكوين الحالة. لذلك يصبح الحل إلقاء نفسك في بحر الحب تاركًا مسألة الرصد لوقتها المناسب إن كتب لك الخروج من مغامرتك حيًّا.

من حسن حظي أنني حين أحببتها كنت لا أزال شابًّا عشرينيًّا لم يتورط كليًّا في أفكارهم النمطية الفاقدة للمرونة خاصة عن الحب الذي تعلمته على يدها أنه لا يمكن إلا أن يكون حادثًا حتميًّا محددًا بواسطة القدر سلفًا. لذلك كانت علاقتنا مفترق الطريق الذي تغيرت حياتي عنده، امتلكت قدرات عقلية خارقة وكأنها تملك أسرار الكيمياء فقد كانت قادرة على تحويل الأشياء التي لا قيمة لها إلى أخرى نفيسة، كما كانت لها قدرة هائلة للعصف بقناعاتي وتوجيهي من جديد في الاتجاه الذي تريده فالمكائد التي تبذل بها النساء طاقة فكرية هائلة ينتجها عقلها بسلاسة وكأنه خلق من أجل القيام بمثل هذه الأمور الشيطانية، فاستسلمت للتغير الذي أتاني منها ورحبت بابتلاعها لي عاطفيًّا.

كان حبي لها جنونًا في رأي الجميع وأولهم أمي المستحيلة في التعامل متصلبة الرأي، شيئًا غير مألوف أتى من الماوراء كمصيبة لن ترتاح إلا إذا توقفت عن التشبث بها، لم أفلح في شرح حقيقة الدور الذي قامت به ليلى في حياتي وكيف أنها صالحتني ليس فقط على نفسي وإنما مع علاقتي المتوترة بأسرتي التي أحسست تجاهها باللاانتماء قبل قدومها لحياتي وكيف أنني أعلنت الحرب في أوج أشكالها من بعد انفصالنا وبطريقة أعنف حتى

أصبحت رجلًا قاسيًا قد حذف من قاموسه الحب الذي كان على وشك أن يدفع كرامته للحصول عليه بعد أن عاداه بزرع صورة مشوهة للمرأة الوحيدة التي أحبها وهو يحكي لابنيها عنها رغم أنه لم يرها أبدًا كذلك! قلت لها:

إنها متمرسة في ممارسة نوع خاص جدًا من الدعارة، high class «التي تستتر تحت شعار الحب، بعد اصطيادها لي كمومس تعرف كيف تنتقي زبائنها».

كنت أعرف أن الغضب هو ما دفعني لمحاربتها في أعز ما تبقى لها، أو بالأحرى ما تبقى لنا، في الواقع كانت أنقى من أن تفسر تلقائيتها بهذا الشكل صحيح كانت امرأة متمرسة باحتراف لاعبة نرد لكني واثق من أن براءتها هي الشيء الوحيد الذي لم يستطع قبح العالم المساس به مما جعلني متأكدًا من عدم انشغالها بحفر فخاخ الحب لأقدامي الرطبة أو تماديها في تمثيل دور العاشقة عليّ ببراعة.

منذ يومنا الأول وأنا أخفقت في التخلص من أهوائي بتجاهل مقدار السعادة التي وهبتها لي دفعة واحدة، ظل شيئًا من عطرها عالقًا في أنفي، وكنت كلما حاولت إغماض عيني هاجمتني أنوثتها بشراسة وهي تضمني لصدرها مخترقة رجولتي بحنو.

في مكالمتنا الهاتفية الأولى التي استمرت لست ساعات متواصلة ابتدأت قصتنا، كنت على استعداد أن أتمهم عشرة ساعات وربما أربعة وعشرين

فلم ينتابني شعور الملل. بددت مني رغبتي في الخلود إلى النوم رغم كوني كائنًا صباحيًّا يختلف أسلوب حياته عن حياتها، حياة السهر. عاندت جسدي وخالفت عاداتي لأبقى معها أكبر فترة خارج الزمن.

أخبرتني بشقاوة أنها معجبة بهدوئي وأضافت أنها نقطة قوتي في زمن يهزني فيه الجميع بشكل لا يحتمل.

وبدوري أبديت إعجابي بجرأتها وطريقتها الواثقة بالنسبة لشخص مثلي يضيع تسعة وتسعين من فرص عمره الذهبية في ترتيب الكلام وفي نهاية المطاف لا يبوح بشيء منه.

تحدثنا كثيرًا وضحكنا، تكشف لي أني عشت طفولة مملة مقارنة بطفولتها الفريدة، ليس عندي من التفاصيل ما علق بذهني لأرويه كمغامرات مثيرة عادة ما يتباهى بها أصحابها بعدما يكبرون.

حكت لي عن ومضات في طفولتها التي تحفظها بذاكرة حديدية لا تختلف عن ذاكرة الأفيال وكيف كانت متفوقة ومشعة بالحياة كما هي دائمًا، عرفت من كلامها أنه جمعتها علاقة خاصة بأمها وأن هناك شيئًا غامضًا يتعلق بوالدها لأنها لم تدلف سيرته في حديثنا إطلاقًا، قالت بنبرة ذابلة وكأنها تقطع طريقي للحديث عن أسرتها:

«أبي وأمي متوفيان».

قاطعتها بضيق:

«ليس لديكِ إخوة؟»

قالت بقلب بارد:

«لا».

عرفت فيما بعد أنها كذبت، حكت عن الواقع الذي خلقته لنفسها وعاشت فيه بعد أن اعتبرت نفسها وحيدة في الحياة، ربما كانت لا تريد المخاطرة بالعودة وانفضاح الحال المتدهور الذي وصلت إليه كما كانت تعتقد، وربما أيضًا كانت قد اعتادت على مواجهة الحياة بمفردها أو ربما كانت نادمة على ما ألحقته بنفسها من ضرر للدرجة التي تجعلها لن تحتمل مزيدًا من مشاعر جلد الذات والخزي.

في المرة الأولى التي جمعنا فيها بيت واحد، كنت قد اتخذت قراري بشأن تركها بيت الطالبات بعد شهرين كنا نتقابل فيهما بسرية تامة لم تكن تؤيدها لأن ليس لديها شيء لتخسره. أما الوضع فقد كان معقدًا نسبيًّا في حالة رؤيتي معها وانتقال الخبر إلى أهلي ومعرفة أنني في علاقة من هذا النوع المشبوه، لكن على أي حال لم يبقَ الموضوع سريًّا إلا لفترة قصيرة.

شعرت أن إقامتها في السكن البائس لا يسعدها بالقدر الذي تستحقه أو بالأحري بالقدر الذي رأيتها تستحقه فاستأجرت شقة لتكون لكلينا وبوفاة أبي امتلكت من المال ما يكفي لشرائها ووهبها لها إلى الأبد، كنت أدرك مقدار الأمان الذى ستبثه في روحها امتلاكها لأربعة جدران فقد كانت دائمًا تردد بلا وعي: «أريد بيتًا لي، بيتًا ملكي، بيتًا لا يملك شخص استبعادي منه».

تركتها تختار كل ركن على ذوقها الخاص دون أن أبخل عليها فقد كان كل ما يهمني أن يكون ذلك البيت مساحتها الخاصة، حانتها ومحرابها الذي لن يكون لها ملجأ آخر غيره.

فاجأتها بتحقيق أمنية أخبرتني بها من قبل وتعهدت بيني وبين نفسي أن أنفذها في الوقت المناسب، أردت أن أهديها كل ما تريده على طبق من ذهب، أن أشعرها أن كل الأمنيات التي علقت في قلبها لفترة أصبحت على وشك الحدوث وأن حياة جميلة في انتظارها معي. أوصلت مقابض باب الشقة والحجرات بنظام صوتي فإذا ما انفتح أي باب انبعثت الموسيقى التي تدمنها في أركان البيت، لم يكن ينقصنا في ذلك النعيم إلا أن نتزوج، ورغم كُل الضغوطات التي مارستها عليها كانت ترفض لعلمها برفض أمي انتسابها لعائلاتنا. تركت لي البيت أكثر من مرة لتهديدي بألا نتطرق لهذا الموضوع مجددًا، وأنه يجب عليّ أن أكتفي بالحب دون سعي لما أكثر من ذلك، اتفقت معها أخيرًا أنه بيتها وأني الذي من المفترض أن يرحل في حالة حدوث أي خلاف بيننا، أصبحت أرد لها الصاع صاعين فأتركها بالأيام لا تعرف عني أي خبر. لكنني حين أعود كنت أجدها تنتظرني بشغف أمام باب الشقة، تضمني بشوق إلى جسدها وتمسح بيدها على ظهري غير متصنعة الاهتمام ثم ترفع رأسها من فوق كتفي وهي تنظر إلى عيني مباشرة قائلة:

«كنت واثقة من أنك ستعود».

2

قبل أن يجمعنا بيت كنا نلتقي في سيارتي بسرية وتكتم، تطورت علاقتنا سريعًا بعد أن تخليت عن تعقيد الأمور معها أكثر من اللازم كما نصحتني بقولها:

«الحب الذي لا يجعلنا أحرارًا لا يعول عليه».

اتفقنا بأني سأعلمها القيادة، هي من عرضت في الأساس وحين ترددت في قبول عرضها قالت بجدية مخيفة:

«أنت تبالغ في تحليلاتك لطلباتي التي أعتبرها بحذاقتي الطريق الوحيد الذي سيصلح الخردة التي بداخلك».

مما اضطرني للموافقة على إسداء معروف اعتبرته حجة ممتازة لمراهق متحفظ وعاشق مبتدئ لاستدراج فتاة إلى سيارته دون أن يعرض نفسه لإحراج عرض قد يواجه في الطبيعي بالرفض.

أفرطت في الحيطة كي لا يرانا أحد بينها نرتكب سلوكًا مشينًا أخلاقيًّا وغير مقبول في مدينتنا، يفسر على نحو خاطئ، سيدينها كامرأة أكثر مني كرجل، فعادة تصنف التي تركب سيارتك على أنها فتاة درجة ثالثة ستكون متاحة لك عاجلًا أم آجلًا في الفراش.

اتخذنا من العشوائية قانونًا سارت به حياتنا لكسر الروتين اليومي الممتلئ بالمهام الثابتة. أن تكون محبوبًا متعة عارمة لكن أن تكون محبًّا ومحبوبًا في الوقت ذاته متعة تصل لذروتها تجعلك لا مباليًا إلا بالعشق الذي تنهل منه بقدر ما يعرج بروحك متعاليًا على ثقل الخطوات المحسوبة.

لم تكن المنصورة بمستوى الانفتاح الذي هي عليه اليوم، فالأجيال الجديدة من مواليد التسعينيات والألفينيات أكثر شجاعة وتصميمًا منا للحصول على ما حرمنا منه، بخضوعنا الأخلاقي لمعايير مجتمعية بالية لم تكن تستحق سوى السحق بأقدم حذاء.

لذلك كنا نفر هاربين كأي ثنائي متمرد خارج حدود المدينة المجحفة التي كانت ليلى وفقًا لأحكامها اجتازت عمر الطيش، وفي سن يلزمها بعدم الخوض في علاقة عاطفية غير مشرعنة لأن كُل اللاتي في سنها تزوجن وأنجبن. هكذا هي القوانين المعقدة لكل المدن النصف حضرية، إنها مشتتة بارتباك واضح بين سمات الريف والحضر، فلا هي ارتقت لمستوى تحرر المدن الكبرى بوتيرتها السريعة التي تفرض على أفرادها حالة من السحل التي تعيق تركيزهم على حياة الآخرين وتصرفاتهم بشكل مؤذٍ يحولهم إلى

طفيليات تتغذى على تدمير حياة الغير. ولا هي تراجعت لعادات القرى المتمسكة بتقاليدها الخشنة، فأصبحت مدينتا شيئًا ممسوخًا، بؤرة جهنمية نسكنها كغراب سعى جاهدًا كي يتحول إلى طاووس لكنه فشل في أن يطور من نفسه وفشل أيضًا في استعادة حالته الأولى.

كنت أبذل كل ما في وسعي كي أجنبها الصدام مع أصدقائي المقربين الذين كانوا ينعطفون معها في جدالات فكرية وفلسفية جعلتها مكروهة بينهم. لكني كنت أعذرهم لتفهمي سبب التباين الفكري الذي بينها وبينهم. أصدقائي لا يملكون قلبًا بحجم الدنيا ليستوعب إنسانة صريحة ولاذعة الآراء مثلها، كما أنهم يفتقرون إلى الوعي والتجربة المتقدمة بهما عشرة سنوات عقلية عنا جميعًا، صارحتهم بجرأة مرفوضة، قائلة:

«يوميًّا تنشأ آلاف علاقات الحب المسروق تشهد عليها الأبواب الموصدة للشقق، السيارات والطرق السريعة والمدن الساحلية المجاورة».

عارضوها بعنف واحتدم النقاش فظننت أنها ستبصق في وجه أحدهم وتضربه على رأسه بالكوب الزجاجي الذي كان أمامها بعد أن وصف الذين يسيرون على طريقها من زاوية الحديث بلا قيود في كل المواضيع الفجة بأنهم منحرفون.

صممت على رأيها باستماتة أمام رفض الجميع لما تقوله مرتدين ثوب العفة الذي زادها تحررها منه غواية في نظري، بإدراكي للحكايات السرية كنت واثقًا من أن جميعهم يعرف أنها تقول الحقيقة التي لا يستطيعون التفوه

بها، ولا يريدون سماعها لأنهم بعدها لن يجرءوا على النظر لأنفسهم في المرايا دون أن يكرهوا ذواتهم لذلك أعدموها نفسيًّا كي يتخلصوا ممن اعتادت تعريتهم على الملأ وبلا رحمة.

مالت على أذني وطلبت مني الانصراف بإلحاح قبل ارتكابها لجريمة بعد أن قالت نكاية فيهم:

«آسفة، أعتقد أن يوسف وأنا نهدر من وقت قصتنا فوق هذه الطاولة الكثير من الوقت والطاقة».

غادرنا، هي من قادت السيارة بسرعة مجنونة متنقلة بين الشوارع المزدحمة حتى وصلنا للطريق الذي يربط بين المنصورة وجمصة، كانت يدها ترتجف وهي ممسكة بعجلة القيادة بينما تلقي شخرات بعصبية قائلة:

«لا تجمعني مرة أخرى مع أولاد الكلب هؤلاء».

تأملت عصبيتها وأنا أتساءل في قرارة نفسي عن مدى جديتها في علاقتنا، فلشخصيتها أبعاد جعلتني متخوفًا من احتراق قلبي هباءً في قبضتها ككومة قش، نحن الرجال تقلقنا اندفاعية امرأة نحو عالمنا المليء بالحسابات الدقيقة التي تشكل عائقًا للاندماج معها في قالب واحد لا سيما عدم وجود تاريخ طويل من الثقة المتبادلة أو شبكة مواقف ضخمة بينكما لتتضح حدودكما الشخصية ليصبح كل منكما عمودًا أساسيًّا لروح الآخر.

تدريجيا وبحكم العِشرة تفهمت رهافة بنيانها النفسي، كان شيئًا في

طفولتها قد خدش وازداد بعلاقتها الهدامة مع هاشم فوضع بينها وبين الحياة حاجزًا نفسيًا سحقها بشراسة. تقبلت على مضض ما روته لي عن قصة حبها الأولى والتي تعمدت ألا أتقصى عن تفاصيل تخصها، جاهدت مشاعر الغيرة كي لا أزرع قصتها القديمة في مستقبلنا معًا، لكنها كانت كثيرة التطرق إلى جرحها الذي احترفت في أن تنكأه كلما يبس. من شدة الشعور بالأذية كشفت للآخرين عن ماضيها بسهولة وكأن أسرارها الشخصية سلعة بإمكان أي شخص إبداء رأيه فيها بتحقيرها أو تعظيمها.

نصحتها أن تحد من الاندماج الشديد مع أي عابر سبيل في أحاديث حميمية لا تخص أحدًا غيرها، فقد كانت فوضويتها في الحديث السبب الرئيسي لسمعتها الملطخة بقصص لا تتناسب مع طيبتها التي تنحط لمستوى السذاجة والتي يسهل على أي إنسان اكتشافها لو أرهق نفسه قليلًا لاستيعابها.

أكثر ما أثار غضبي عليها جهلها الدائم للدوافع من وراء السماح للآخرين بازدراء حدودها الشخصية، رجوتها أن تتخلى عن كلمة لا أعرف التي تستخدمها كإجابة جاهزة لن تزيد أمورها إلا تعقيدًا، بعد أن اعتبرت علاقتنا مرحلة انتقالية هامة تحتم عليها حسم المواضيع المتعلقة بالماضي حتى تنجح في محو مأساتها التي كنت أشك أحيانا أنها تستخدمها كطعم رخيص لتستدر من خلاله عطف الناس كمعاق يتعمد الكشف عن إعاقته ليحقق ربحًا ما. أوصلني تفكيري لبعض حالات اللاأمان في علاقتنا التي شيدت فوق أرض رخوة هي وكم رهيب من الأحلام التي أطاحت بها

تلك المرأة ذات الأوضاع النفسية المرتبكة، لأستيقظ بعد سنوات فأجدها قد دفعتنا أنا وابنيها من أعلى قمة في جبل الأوهام على نحو مفزع.

بداخلها امرأتان تعيشان في دوامة ونزاع لا يهدأ فكلتاهما مكتسبتان أي إنها لا يمثلان ذاتها الأصلية، إحداهن الابنة التي تبحث عن أب، والأخرى الأم التي تبحث عن ابن، الأولى تدفعها للهروب من تحت سيطرة أي رجل يأسرها بشكل لا يتناسب مع جموحها والثانية تتنازل عن دور الأم بعد شعورها بالإعياء والاستنزاف لأنها تعلمت من قصتها الأولى ألا تكون المرأة التي تعطي دون أن تجد لعطائها مقابلًا، لذلك كان يظن كل من لا يعرفها أنها متطرفة الأمزجة لدرجة تدفعها لاحتضان الناس والالتصاق معهم بعنف والجود عليهم بمشاعر ترفعهم إلى السماء السابعة ومن ثم تنقلب ضدهم فجأة لتلقي بهم في الجحيم. دفعتني المعرفه بتعرجاتها النفسية لاستخدام عقلي أكثر من قلبي معها، لقد دفعتني لأن أكون شخصًا آخر هو أيضًا مكتسبًا، يعرف كيف يتقبل تصرفاتها الطائشة برباطة جأش ويتبع معها سياسة النفس الطويل حتى لا تجزع إذا رأت غيرته القاتلة عليها والتي كنت أعرف سلفًا أنها لن تحتملها ففقدت مشاعري جزءًا عظيمًا من تلقائيتها، لعبت معها من حين لآخر لعبة الغميضة كي لا أكون متاحًا دائمًا فتزهدني وغائبًا باستمرار فتتخبط في الفراغ الذي خلفته، نجحت بضراوة في إخفاء مشاعري مما اعتبرته هي خبثًا بينما كنت داخليًا على قناعة أن الخوف يدفعني لتسليح نفسي لكي لا أرتكب خطأ ما يجعلها

تتنازل عني دون تكليف نفسها عناء الالتفات للوراء للملمتي وأنا أنهار بعد خسارتي الأبدية لها.

في ذاك اليوم قالت ساخرة:

«أنت لئيم تتقدم في علاقتنا بوعي وذكاء».

فمازحتها قائلًا:

«طبعًا تقولين ذلك لأني الوحيد الذي نجح في ترويضك!»

فنكزتني متسائلة:

«أنت؟!»

ربما أكون أخطأت في صراحتي لكني أجبتها بسرعة:

«نعم أنا، لأني فهمت أن من يريد الاحتفاظ بكِ عليه أن يحبك أقل ويحتويكِ أكثر».

ضغطت بتهور فوق فرامل السيارة بعد أن كانت تسير بسرعة طائشة، فتأرجح جسدانا للأمام ثم ارتدا إلى الخلف لكنها لم تأبه بذلك، استدارت بجسدها وهي تنظر باتجاهي عاقدة حاجبيها في محاولة منها لفهم شيء لا تستوعبه لكني أسرعت لمحو علامة الاستفهام المرسومة فوق ملامحها:

«يا ليلو أنتِ لا تريدين حبيبًا بقدر ما تحتاجين صديقًا، لأن الأصدقاء لا يغارون لا يسيطرون لا يجلدون بعضهما على الأخطاء لذلك أجمل

ما في الصداقة الحرية وأفضل ما في حبنا الصداقة».

فردت وهي تقطب قليلًا:

«لكني أغار!»

قلت:

«إذن فلتعتبريني أسيرك مدى الحياة دون إلزامك بأي شيء تجاهي، وبدوري أعدك ألا تقترب مني امرأة بعدك، فقط كل ما أريده منك أن تكوني آمنه مطمئنة».

«ألهذا الحد تحبني؟»

«أحبك للحد الذي يجعلني لن أحتمل خفوت نجم علاقتنا كأي علاقة بدأت بإعجاب رهيب يجعل كُل عيوبك واضطرباتك مقبولة ثم تنتهي بجلوسكما بمحاذاة بعضكم البعض تتبادلان الشتائم بشكل مقزز».

3

عالم الرجل فارغ وخاوٍ إلى أن تدخله امرأة لتقلبه رأسًا على عقب، أكبر جرعة أنوثة رأيتها في حياتي حين همست بصوت أضنته الشهوة وكأنها واثقة من أنها تريد قول ذلك:

«المجد لأول ثنائي اتحد طرفاه لارتكاب أول خطيئة عرفتها البشرية».

أفرطت في تكذيب حدسي الرجولي تجاه ما استشفيته من خلال كلماتها المتلثة بشهوانية فضاحة، حاولت التصرف بأفضل صورة، كنت مشتت الفكر لا يتركز انتباهي في شيء من أحاديثي العشوائية التي أطلقتها لأغطي على فشل الإمساك بزمام أموري التي أفلتت مني بشكل لم يسبق لي حدوثه.

تخيلتها وهي تتجول عارية في ذهني كتمثال إغريقي لامرأة بجسد متناسق وفقًا لمعايري الذوقية، فلا أستطيع أمامها إلا أن أقفز من مكاني وأعانقها، فأرى في نظرات الغواية وهي تضحك وتهرب من بين ذراعي مآرب أخرى.

استجابت أعضائي سريعًا تحت سطوة استيهامات دعمتها بلمسات تنبيهية من أصابعها الناعمة فعلت رجولتي بمداعبتها لشعر صدري من بين فتحات صغيرة بقميصي.

بالكاد كنت أسمع صوت أنفاسها المرتعشة وهي تقترب بجفنين ناعسين وأهداب ترفرف حول نظرات حانية مثيرة تسعى لهدم الحاجز الجليدي بين جسدينا.

بمحاذاتها كنت أجلس مشلولًا يسري الخدر في جسدي الذى راح يبرد متناقضًا مع حبات عرق نبتت فوق جبيني. شعور عميق بالحياء أفسد متعتي في موقف تورطت فيه انفعاليًا بعد مباغتتها بلدغة شرسة من شفتيها، طرقت على حديد رجولتي وهو ساخن ووضعت شفتي السفلية بين أسنانها وضغطت فوقها بشره.

توقف الزمن للحظات غرقنا فيها بداخل هالة زرقاء نقية تدعونا للانغماس في كيان بعضنا البعض لتفقد حاسة البصر قيمتها أمام ما منحتنا إياه حاسة اللمس من دفء وعاطفة.

سرعان ما أعادني تحفظي إلى الواقع ونغصت متعتي أفكار تشكيكية، فرضت نفسها على هيئة سؤال: «هل سبق لها وكررت ماحدث بيننا الآن مع هاشم؟»

المحب أناني خاصة إذا كان رجلًا، اختبرت ذلك بنفسي حين اكتشفت متعة أوصلتني إلى الذروة ووجدت رفضًا بداخلي ألا أكون أنا أول من

اكتشفها. مثل هذه الأفكار كانت تظهر كرد فعل للحيرة التي أتخبط في طياتها بسبب ما زرعته أمي بتربيتها الصعبة وبين ما تدعوني ليلى إليه وهو أن أجازف بكل شيء لأكون حقيقيًا ومتحررًا.

تكون في داخلي شعوران متناقضان وكأن قبلة واحدة كافيه لتنقل لي عدوى الاضطراب الذي أعتبره السمة الأساسية في شخصيتها، فكرت أنها مجرد فتاة طائشة لا تحسب عواقب تصرفاتها التي ستجلب بها العار لنفسها بعدما لمحت على وجهها تعبيرات هادئة تنم عن شعور جم بالرضا رغم أن ماحدث كان لا بد أن يجلب لها إحساسًا بالغًا بالذنب، وسولت لي مكاسب الأنا ذات الطابع الذاتي لأستغل اندفاعها كفرصة لأتدرب على إنجازات رجولية مع فتاة جاءتني منذ البداية غارقة في الدنس.

أطلت النظر إلى وجهها المبتسم بوقاحة بينما كنت أفكر ألا أترك فرصة للتحليل الزائد لتخريب مزاجها الذي بدا معتدلًا وكأنها سعيدة بحالة الفوضى التي أسقطتني في شراكها، فقالت وهي تجلجل بضحكة استفزازية عنيفة ملأت السيارة المغلقة على أسرارنا معًا:

«أوووه القديس ما زال بطهر فتاة عذراء لم تمس».

أيقظتني جملتها من شرودي وأنا أحاول عبثًا عقلنة الشرطة، لم أستطع كبح سؤالًا عنيفًا متواصلًا كان يقرع أبواب عقلي بحثًا عن إجابة مقنعة:

«من أين اكتسبت هذا الكم من البجاحة؟»

لم تلتفت لي على الإطلاق بل ظلت تنظر بثبات أمامها، تجهم وجهي بتجاهلها لكلامي وازداد توتري فأضفت:

«ما حدث خطأ كبير».

دون أن تحرك رأسها قالت:

«الناس تخطئ وتتوب، لا تحمل الأمور فوق طاقتها».

في قرارة نفسي ارتجفت، فقدت اتزاني وأصيب رأسي بصداع شديد وهو يعمل بقوة مضاعفة كي يستوعب ردها الصادم المشبوه الذي كان على وشك إعادة هيكلة فكرتي الطيبة عنها.

فقدت رغبتي في أن أقول شيئًا فتمدد الصمت بيننا، كنت واثقًا من أن كلينا ممتلئ بالضجيج الداخلي الذي يكفي لإدارة حوار يشرح فيه كل منا ما يفكر فيه للآخر.

أشعلت سيجارة وأخذت منها نفسًا عاليًا وهي تدندن كشخص يتخبط في دروب سوداوية بلا مخرج:

«ياريتك هون حبيبي وليل ويكون نبيذ وشمع الليل وأكتبلك ع ورقة حتى ما أقول ما بقدر قول يا ريتك مش رايح ياريت تبقى بتبقى عطول».

بدا جمالها المتوهج في طور التحول، وانقلبت نبرات صوتها الجريئة لنبرات مفخخة بالكآبة وكأن الصدأ غلف حنجرتها كليًّا، انخرطت وجدانيًّا مع

جو البؤس الذي عشش في السيارة، أمسكت عن التطرق لكل ما سيزيد حالتها سوءًا.

المرأة التي نضحت منذ قليل بالغواية فقدت السيطرة على نفسها وانهمرت في البكاء وهي تضج بالميلودراما كأني اغتصبتها!

التقطت أنفاسها بصعوبة بعد أن توقفت عن قضم أظافرها بعصبية، واندفعت في وجهي كالإعصار:

«تشـدقك بالفضيلة يسـمم عفويتي معك، وردودك سخيفة لدرجة تؤلمني».

توقفت لهنيهة ثم قالت وكأنها على وشك أن تفقد وعيها:

«قديمًا كنت أعتقد أن القوة هي الصفة الأساسية التي يحتاجها الإنسان ليعيش لكني وبعد فوات الأوان أدركت أنني لأعيش يجب أن أكون متصنعة وأنانية وخبيثة، أعرف في هذه الحياة أكثر من مئة شخص من الجنسين هل تعتقد أن أحدًا منهم قد كلف نفسه ليرى مني نقطة أبعد من تلك التي تطفو على السطح! الكل يسعى لإضافة لمساته بالتدخل في تكويني وتجريدي من هويتي لدرجة أني بعد سنين مع هذا الصراع لم أعد أميز هل ما أنا عليه اليوم حقيقتي أم مجرد نتاج لمحاولات الآخرين لتغييري!»

لم تترك لي مجالًا كي أقاطعها، أضافت:

«هل تعد قبلتي مشكلة! نجاسة نالت من طهر روحك! عظيم دعني

أزيدك من الشعر بيتًا لأثبت لك سوء ظنك بأخلاقي، إني أفرط في ممارسة العادة السرية منذ أن كنت طفلة لا تصورات واضحة لديها عن الجنس، كل ما أعرفه أنها كانت وسيلة أستمد منها هدوءًا في وسط تفاصيل حياتية معقدة، محض صدفة كشفت لي شعورًا غريبًا باللذة، كانت حياتي بلا تصنيفات لكني صنعت تقبيمة لطيفة وصدقتها وضعت فيها اللذة مع السعادة، والتقزز مع الحزن، فلسفة تبدو ساذجة بتقدم العمر لكني تمسكت بها، وإن كان أسلوبي في الحياة لا يروق لك ابتعد عني وارتاح».

ما قالته كان كافيًا لزلزلة صورتها في عيني، لكني اعتبرت صدقها قوة من نوع نادر وقدرة جبارة في التخفف من الرتوش التجميلية التي نضفيها جميعًا على أنفسنا لتحسين صورنا عند الآخرين. تركت لي حرية القبول أو الرفض، الحرية التي لم يسبق أن تذوقت لذتها قبلها.

ظللت تحت تأثير التناقضات لأيام توصلت في نهايتها إلى قرار بتنحية صراعاتي الشخصية جانبًا لأساعدها على كسر قشرة مشاكلها النفسية التي تحبس نفسها بداخلها كجنين ما زال يجهل أن خارج رحم أمه حياة بأكملها تنتظره. الآن أتهم نفسي بالتسرع وأنني أهملت التعمق في سراديب حياتها بشكل كافٍ لأبصق في وجهها لا مباليًا بكل التخاريف التي دارت في رأسي، وأرميها كالمخلفات الورقية من نافذة السيارة دون أن أقع في مكائد الحب التي دفعتني لتبني مسؤولية آلامها.

• III •

«في الحب كما في الحياة، الفائز
هو الطرف الأقل خســارة».

ليلى ويوسف

«عندما يصبح نفسك غير كافٍ لتعود أدراجك، عندئذ سيكون خيارك الوحيد هو السباحة إلى الأمام نحو المجهول والصلاة لإيجاد مخرج».

"مثل إغريقي"

1
رسالة ليلى

تأخرت كثيرًا عن موعد رجوعك إلى بيتنا، لذلك كنت على يقين أنك لن تعود إليّ هذه المرة، إنني أستنشق رائحة الغياب بحذاقة لا تخطئ منذ ذهاب أبي من دارنا. رغم المسافات التي تفصلنا فإني مازلت أشعر بك فهكذا تصل قوة الحاسة السادسة لامرأة حين تتمادى في حبها لرجل، تجيد قراءة رسائله الصامتة بوضوح.

سأطلب منك أن تنظر لحكايتنا من بعيد كطرف محايد لا علاقة له بشيء، مجرد حكم عادل تطلب إحداهن منه أن ينصفها، تخيل معي مقدار صدمتك في شخص بذل أقصى جهده كي يقنعك بشتى الطرق أن تثق به وتبادله الحب، لأنه الأصلح من بين الجميع لدور البطولة العاطفية في

حياتك، وحين وثقت به خذلك!

نعم لن أقول إنني أحببتك، فقط وثقت بك!

الآن فقط وجدت ضالتي بينما لا أبحث عنها وأكتب لك هذه الرسالة لغرض آخر، لكنها ساعدتني في إيجاد الحاجز الذي أعاق مشاعري من التدفق إليك، إنني حين اخترتك سرت بلاوعي في الاتجاه المعاكس الذي سرت فيه من قبل، وكعادة التطرف لا يسوق المرء إلا لخسائر فادحة، عشت أتخبط بين حب الأشخاص الخطأ إما الذين يستغلوني وإما الذين لا يعرفون ماذا يريدون مني بالتحديد، لذلك كنت أختار إما شخصًا ماجنًا - هاشم - وإما شخصًا عاجزًا، أنت.

ربما تكن الكحوليات ومن بعدها الحشيش قد سمموا جهازي العصبي ودمروا أغلب خلايا عقلي الذي قال لي عنه الطبيب النفسي إنني مصابة فيه بخلل مما يجعلني أكثر عرضة للاكتئاب من البشر العاديين، بالإضافة إلى اكتسابي صنوفًا عدة من الأقراص المنومة والمهدئة التي فقدت بفضلها عشرة كيلو جرامات من وزني فازدادت تجاعيد وجهي لدرجة لا تتناسب مع سني فبدوت أقل جمالًا مما كنت بسبب البروز العظمية المستجدة في وجنتي ولا مبالاتي بمنحنيات جسدي الذي فقد أيضًا تفاصيله الأنثوية التي بدونها أصبحت أقرب إلى هيكل عظمي إلى جثة بدأت تتحلل تدريجيًا بعدما تواطأ دود الألم النفسي بشكل فظيع لإخفائها. لكن لا بأس بكل التخاريف التي أكتبها طالما أن حدسي ما زال بخير يسعفني حين ألجأ له.

من حين انقطاع اتصالاتك ورسائلك عبر البريد الإلكتروني وأنا أترقب التغيرات العنيفة التي ستعصف بحياتنا كرد فعل اعتراضي على جرائم الرب الذي اعتدنا منه على تلك الضربات القاسية التي يرسلها لنا كالصواعق بدون سابق إنذار. لكنك أبهرتني بثباتك الانفعالي المغلف بصمت وكأنك عدت من جديد لطريقتك السلبية وسلوكك الانهزامي أمام مشيئة الأقدار. بزهد متصوف قد أعرض عن ملذات الدنيا واجهت الصدمة وعوضًا عن إلقاء حزنك على كتفي لاحتواء آلامك أعرضت عني وكأنني السبب الرئيسي في القطيعة التي وقعت بينك وبين أهلك على مدار عام، خسروك فيه باستمرار لصالحي دون أي جهد مني، لأن غباء أمك وإصرارها على رفض زواجنا جعلك تتوهم بإمكانياتك الخارقة لتبني دور البطل الذي سيتحمل تبعات خياره للمرأة التي أحبها بشجاعة لم تكن تمتلك ولو القليل منها.

عد بذاكرتك إلى الحديث الذي دار بيننا يوم طرقت باب بيتي بعد منتصف الليل ومعك حقيبة ملابسك وكل أغراضك التي قلت بعيون دامعة وحلق متحشرج إنك لم تترك منها شيئًا في بيت أمك لأنك قررت ألا تعود، فقد سئمت من كونك الفارس النبيل الذي يبدِّي مصالح الغير على مصالحة الشخصية وأنك، وللمرة الأولى، ستتمرد على رفضها لقرارك بالزواج مني بعد أن تعودت منها على إقحامك في صراعات كادت أن تحولك من إنسان ذي قلب إلى آلة تفعل ما تأمر به، لكنك الآن تتمادى في تصديق

وهم أنك الابن البار الذي تلاعبت به امرأة شريرة مثلي ودفعته لعقوق أمه. لم يسبق لي أن طالبتك بمعاداتها منذ أول يوم شعرت فيه بالرفض من قبلها إلى اليوم الذي رحلت أنت فيه بعد أن كدت تشنق نفسك في سقف غرفتي لأوافق على الزواج منك، لكنك الآن تقنع نفسك بأنني سبب مآسيك لذلك قررت التخلص مني دون إعلامي بعدم رغبتك بالاستمرار معي في العلاقة وكأني الدنس الذي يجب التطهر منه وأنت تشرع في بناء حياة طاهرة مباركة برضا أمك، بعد أن أخذت حكايتنا وقتها في حياتك وقررت إغلاقها بالتوقيت العاطفي المناسب لك.

إنني ارتكبت الجريمة نفسها، ورغم إيماني لدغت من الجحر ذاته أكثر من مرتين، رفعت سقف توقعاتي في البشر لأجدني أبالغ في تضخيم بعض الأقزام من الرجال وصبهم في قوالب عملاقة تفوق أحجامهم الأصلية وأتمادى في رفعهم من درجة الآدمية لدرجة الملائكية التي لا تليق بشرور أفعالهم تجاه قلبي. لكن لا فائدة الآن من تحميلك ثقل أخطائي لأن العيب عيبي منذ البداية فمن نسي الدرس الذي لقنته إياه الصفعة الأولى يستحق وبجدارة الصفعة الثانية، فقط اتركني أؤكد لك أن مقدار صدمتي كان هائلًا في الدناوة الفطرية للكائن البشري بداخلك، والذي تمادى في إيجاد البدائل بلا وعي. وأنت لم تُدمِ قدميك في البحث عن بديل فقد كان جاهزًا، رهن إشارتك منتظرًا عودتك بالسلامة بعدما شبعت من حياة الدفء ورحت تبحث عن حقك في الامتيازات التقليدية للبشر التي قلت بإصرار إنها لم تعد تحتل قائمة أولوياتك بعد أن حولك حبي لكائن يسير عكس اتجاه

الجاذبية، لكني بناءً على حدسي رددت لك:

«للطبيعة قوانين صارمة لا يمكننا مخالفتها وإن حاولنا».

الآن وأنا أرتدي معطف الخيبة أعترف بكل فخر أني أصبت حين أخبرتك بأن الحياة مراحلِ والإنسان نذل، كل ما يشغله إشباع احتياجاته التي لا تستقر إلا بموته.

لم أجنِ إلا التشتت والضياع والشعور بالرخص كنتيجة للفشل في الإمساكِ بزمام أموري، وأنا أرى كُل الذين عرفتهم يتملصون من علاقتهم بي وكأني أستحق العذاب كعقاب لاستدراجهم للحصول مني على ما يريدونه بلا مقابل، في كل مرة كنت أدعي إمكانية التعافي والبدء من نقطة إنطلاق جديدة لتشييد حياة أفضل لأجدني إلى اليوم لم أتروَ في اختياراتي على قدر ما أتورط بها وأنقاد خلف الجميع كالمجذوبة وأحشر كطرف في أحلامهم الشخصية وبدل أن أعترض على وجودي في لعبة لا تجلب لي السعادة أندمج وكأني كائن صلصالي يُشكَّل كما يحلو للآخرين.

اكتشفت أن الصدمات القديمة لم تكسبني مناعة وحكمة لمواجهة الضربات الجديدة بثبات ولامبالاة، وأن سقطاتي العميقة في عالم الرجال لم تلقنيٌ الدرس بشكل يحميني من سقطات أكثر ضررًا، كل ما فعلته التجارب أنها سلبتني قوتي وزادتني هشاشة، رصيدي من الاختيارات محدود ودافعي الأساسي الذي يحركني نحو الرجال إما الخبل وإما الغباء.

ثلاثة أشهر وأنا أعيش وضعًا مؤلمًا وأنت تتهرب من مكالماتي بجحود،

مجرد رسائل قصيرة مقتضبة تأتيني محملة بأعذار أقسى من سابقاتها مثل مشغول الآن، سأتصل بكِ لاحقًا، أمي مريضة لن أستطيع الرد! فقدت أعصابك بطريقة لا تشبهك أمام صياحي، قديمًا كنت أدعي أنك موهوب في كتم غضبك بطريقة ذكية، لكنك فاجأتني بسيل من الكلام الجارح وكأننا أصبحنا عدوين قد تحول هاتفاهما إلى ساحة معركة يتراشقون فيها بالتهم والتهديدات، نعم هددتك بزيارة مفاجئة لك في العمل لو لم ترد على اتصالي لنحسم أمورنا معًا، وبالفعل رددت عليّ لكنك التزمت الصمت وأخذت تسمع كلامي إلى أن فجرت طاقة غضب لا مثيل لها في وجهك، حتى سألتني ببرود:

«أهذا كل ما عندك؟»

لا أدري لماذا وفي هذا الوقت بالتحديد فضلت ادعاء الغباء لأتجاهل الغرض الذي وصلني من وراء نبرة صوتك التي كانت مقصًا صدئًا يجتز النبتة الطيبة التي زرعتها للتو في جرحي القديم. حين تركت أمي يا يوسف ورحلت أتيت إلى هنا ببقايا قلب يحترق وحقيبة شخصية ممتلئة بأسوأ ذكريات الطفولة، أقسمت ألا تتمكن يد من إذاقتي العذاب وأنني سأحمي نفسي لكن مشاعر الوحدة توغلت بعد أن عززها برد المصير المجهول، فأصبحت بحاجة لسند، لم يكن في مخيلتي مواصفات أبحث عنها فلطالما كان جوعي للأمان بوصلتي التي تقودني إلى حتفي، نعم ينتهي التفكير بمنطقية عند النقطة التي تشعر بها المرأة بالاحتياج.

العجوز، هاشم وأنت، ثلاثتكم أشعرتموني أني كيس قمامة يبكي وهو يستبعد ليلقى في خربة مهجورة بعدما امتلأ بمخلفاتكم التي لم يعد لتواجدها بمحاذاتكم داعٍ، وأصبح التخلص منه في أسرع وقت مهمة لا بد من إنجازها بعدما نضح برائحة قذارة مثيرة للغثيان.

هل تعلم يا يوسف معنى أن تحبك امرأة؟

هل تعلم كيف تخشى النساء فجيعة فقدان رجل تحبه بالموت تارة وبالحياة تارة أخرى!

هل تفهم غصة أن يفرض أحدهم عليك نهاية أنت لا تريدها!

أن تتأرجح بين القرارات لتحمي الآخر على حساب نفسك خوفًا من أن تحولك الأنانية لإنسان ظالم فتتنازل عن مهمة اتخاذ القرارات الحاسمة ليصبح الآخر هو سيد القرارات والحكايا!

هل يعلم الرجال شيئًا عن مآسي النساء؟ لا بد أنهم يعلمون لكن القليل منهم من يبالي بها يعرفه.

أعجبني سؤالك الذي طرحته متغطرسًا:

«كيف لقصتنا أن تكتمل تحت هذا الكم الرهيب من الاختلافات؟»

لم أتعجب من نظرتك السطحية لاختلافاتنا فالأفضل بين أي ثنائي ألا يتشابها لكن دعني أقول لك إن الاختلافات لا تعد مجرد اختلافات، إنها

انعكاس لاختلال التوازن في القوة، وأنت الأقوى يا يوسف.

نحن النساء كائنات خارقة تتحمل في الحياة ما يفوق قدرتها، وبالرغم من ذلك تظل كل منا هشة كالفراشة التي تحترق لأتفه الأسباب، ويبدو أنك أحرقت فراشتك قبل أن تخرج من شرنقتها وتدرك كم هي جميلة.

ضحكت وبأعلى صوتي مدهوشة، ضحكة عاجزة، لم أستطع أثناءها تحديد ماهية ما أشعر به، لكنني شعرت بألم ينتصب في صدري ورجفة شديدة ببطني حين قلت لي بصوت متهدج إنك ستتزوج.

تتزوج!

زواج شرعي على يد مأذون وستضع دبلة فضية في بنصر يدك اليسرى وتلقي بالخاتم ذي الفص الأسود الذي أهديتك إياه في أقرب سلة مهملات بجانب كل الذكريات التي ربطتك بي؟

لماذا تخبرني الآن! أم أنك تريد الحصول على موافقتي مثلًا!

مبروك ألف مبروك، أنت فنان يا حبيبي ليس فقط في الكذب والتحوير لكن أيضًا في الغدر والقدرة الخارقة على توديع الماضي دون النظر لحطام الآخرين الذين يدفعون ثمن أنانيتك.

أخاف أن أحسدك فبسم الله ما شاء الله لقد تغلبت سريعًا على الحب والأحلام المشتركة وكل ما جمعنا كحبيبين أو على الأقل كصديقين شهد لهما العالم المحيط بندرة علاقتهما.

كيف لم يعترض ضميرك وأنت تلقي بذاكرتك عرض الحائط وتختفي من حياتي بشكل غير مبرر!

ليس في نيتي إتلافك نفسيًا بكلماتي، كل ما أسعى إليه الآن منع الكارثة التي تتفاقم إلى الحد الذي يصعب على حبنا مواجهته، لقد فكرت ألا أرسل لك رسالتي هذه مدعية اللامبالاة بشكل منظم وكأن الموضوع أتفه من أن أعيره ذرة انتباه، قلت لنفسي اتركيه يتسلى لمدة قصيرة بعدها سيعود بشكل حتمي يلقن به درسًا قاسيًا للحقيرة التي وافقت على الزواج منه رغم علمها بعلاقتنا وواقع أنك تخص امرأة غيرها، إن أسوأ ما ترتكبه امرأة في حق أخرى هو أن تسرق رجلها لتشيد أسرة على أنقاض أسرة كان تحقيق حلم تكوينها مسألة وقت!

بمرور الأيام ربما أتسامح مع فعلتك وأرتق الشرخ الذي ساعدت تلك المنحطة لتلحقه بحياتنا يكفيني أن تتركها لأترفع وأغفر لك خطأك المشين في حقي وحق نفسك، امرأة بأخلاق متدنية أقل من أن تنتصر عليَّ بمؤازرتك، الآن في حياتك امرأتان ولا بد من تقديم إحداهن قربانًا للثانية.

سأغتنم الفرصة لألعب دور المرأة العاقلة التي تنظر للخيانة على أنها هزة عنيفة تختبر متانة الحب بين الرجل وامرأته.

الحب الذي أحافظ عليه بحسن تصرفي كي لا أخنقه بجرعات نكد مكثف، فبرجوعك ستفهم بنت الكلب أنها أرخص من أن تضحي بي مقابل حياة واهية بصحبتها، لا شيء مشترك يجمعكما لتتزوجا، لكني سأعتبر

ضغوطات أمك بعد وفاة أبيك أربكتك فتشتت قليلًا ثم عدت لعقلك الذي ضربته لوثة جنون مؤقتة عادة ما تصيبنا جميعًا بعد صدمة الفقد.

لنتحدث بصراحة فالتجاهل والإعراض عن الكلام بصدق في أدق التفاصيل لن يحل الأزمة، أعترف أنني أخطأت وتماديت في الضغط عليك بما فعلته أمك بحقي، لكن يقيني من أنك تحتوي الألم الذي أشعرتني به هو مادفعني للحديث باستمرار في تلك النقطة، اعترافي دليل على صدق نواياي في تدارك الأخطاء وتفاديها لاحقًا بمنتهي الجدية، يا يوسف دعني أسألك هل لديك القدرة أن تتخطاني وتعيش حياة خالية من صخبي؟ لا مستحيل، لا يمكنني أن أصدق ذلك لأنك دائمًا كنت تستنكر حياتك قبلي، قلت إن مجيئي كان ثورة حركت مياهك الراكدة التي لم تعد تتذكر كيف كانت من قبل.

أنا ليلي يا يوسف، صديقتك الوحيدة ومحور أرضك وهي لا شيء إلا زميلة عمل وابنة الصديقة المقربة لأمك. كلامي تكرار لما قلته بلسانك وصدقته بسذاجتي حين انزعجت من عصبيتي عندما سيطرت عليَّ هذه الفكرة «بأن قلبي لا يرتاح لتلك الأفعى صاحبة العيون الناعسة التي لم أنخدع في دفئها المزيف لأن حاستي السادسة واثقة من أنها تضج بالخبث واللؤم».

قلت بصوت عالٍ حتى أقنعك بوجهة نظري:

«إنها معجبة بك».

واصلت كلامي وأنا على وشك الانفجار وكأنها وضعت لغمًا في عقلي:

«نظراتها كانت مصوبة بحدة نحو يدي وهي تلمسك وكأنها تود لو أن تمنعنا من التلامس».

إنني صاحبة ذاكرة قوية تستعيد الأحداث بدقة والآن بإمكاني أن أرى الموقف يتكرر بكل تفاصيله، أتذكر ذلك اليوم الذي اصطحبتني فيه لتناول العشاء مع أصدقائك في العمل، كنت تجرجرني للخروج من فقاعة الاكتئاب التي دخلتها بسبب أفكار وسواسية استحوذت على حياتي مدعمة بصور ذهنية تتمحور حول خيانتك لي.

أردت أن توجه رسالة لقلبي بلباقة دون أن نقيم جدالًا لإثبات وفائك وكأنك قررت الإفصاح عن ارتباطك عاطفيًا واحترامك لعلاقتنا بإظهاري كي يعرف الجميع بوجودي، ضميرك كان لا يزال يعمل في الاتجاه الأمثل الذي يتوافق مع تربيتك الملتزمة الذي يمثل الإحساس بالذنب تسعة وتسعين في المئة منها.

أردت أن أنصرف وأغادر المكان بعدما سمعت صوتها وهي تتنهد بحيرة بعدما استأذنت مني وانسحبت عشر دقائق للخارج في جو يضربه الفوضى، ظلت تتبعك في صمت انتبهت أثناءه أنني أفهم ما تعبر عنه اللمعة التي تستقر في عينها وما إن تقاطعت نظراتنا لعدة ثوانٍ حتى سألتني بارتباك:

«أين اختفى يوسف؟»

ابتسمت في وجهها بسماجة وقلت:

«يبتاع علبة سجائر من الخارج».

حملقت مندهشة وفتحت فمها بشفتيها الرفيعتين ثم قالت:

«يجب أن تساعديه على التعافي من عادة التدخين المدمرة».

هززت رأسي ببلاهة:

«في الأساس بدأ يدخن ليساعدني على الإقلاع عن التدخين قال لي مقابل كل سيجارة ستدخنينها سأدخن اثنتين ومن يومها وكلانا يدخن».

نظرت إليَّ بحدة لكنها لم تفتح فمها بحرف، داخليًّا ارتفعت حرارة دمائي لدرجة كادت تصل للغليان تمنيت لو بإمكاني كسر كأس الماء القابع أمامي فوق رأسها لأتلذذ بمشاهدة الدماء تكسو وجهها فترتجف مذعورة أمامي بجبن بينما أحدق فيها بعينين يملؤهما الغضب والغيرة فتراجع نفسها ألف مرة قبل الاقتراب منك.

أنقذني حضورك الذي وضع الكرة في ملعبك لتنتشلني من أفكاري الإجرامية التي يبدو أنك تجيد الإمساك بها في التوقيت المناسب، أعدت لي ثقتي بنفسي وبك طمأنتني بقبلة حانية فوق ظهر كفي، أشعرتني بالانتعاش وأنا أتخلى عن حياكة المكائد لإثبات محبتك لي أمامها.

كررت للمرة العاشرة: «إنها تحبك».

فقدت أعصابي. بدأنا نتجادل اتهمتني بالجنون رمقتني بنظرة استخفاف، وضحكت قائلًا:

«يا مجنونة إنها أختي».

لم تكن أختك! كذبت يا يوسف! كنت تضع اسمها على رأس قائمة الانتظار من بين النساء اللاتي ستعرضهن على أمك لتبارك زواجك من إحداهن! كنت تتأملها بعين رجل لا بعين أخ. فتشتهيها سرًا وهي تقف أمام مكتبك فتسرح وأنت تجردها في خيالك من ملابسها الداخلية وتستمتع بأنوثتها في الحلال، من يدري ربما بلغت رجولتك وأنت تستمني تتخيلها تحت جسدك! وأنا ماذا عني! العبيطة التي من فرط إحساسها بالذنب أنها ليست بمقدار النبل الذي تستحقه لأنها سبق لها وعرفت قبلك رجلًا التهم النصيب الأكبر من طاقتها العاطفية فحاولت الاعتذار بتعويضك عن خطئها، فنذرت نفسها لتنهل لصالحك ما شئت من جسدها وهالتها، وكانت النتيجة أنك تماديت معها في الاتجاه الذي تسيل فيه بقعة دم ثمينة فوق فراش يباركه عقد ضمني.

آها بقعة الدم لم تنسها أكيد ولن تنساها لأن لعنتها ستظل تتبعك لآخر العمر، يوم نحرتني بسيف الشك وأنت تبتعد عن جسدي ووجهك ينضح بتساؤلات قاتلة لكبريائي بعد أول مضاجعة لم ينتج عنها قطرة دم انتظرتها كأي شرقي أخذ نصيبه من ميراث الشك، ادعيت التحرر الذي فشلت بإحداثه كتعديل واجب كان لا بد منه، قلت إن الأمر لا أهمية له عندك

وسألتني إن كنت أقمت علاقة جنسية كاملة من قبل! صدمتك إجابتي التي قلتها بصوت منخفض بالقرب من أذنك في جو الغرفة المعتم: «لست بِكرًا».

كنت أعني أن البكارة أكبر من غشاء هزيل يمكن إنهاؤه بحركة عشوائية، البكارة ذات الفتاة قبل أن يُنتهك فتتحول إلى امرأة حتى وإن كانت طفلة لا تتعدى العشر سنوات.

نبذتني في الفراش يومين وانقطعت عن المجيء أسبوعًا يبدو أنك شعرت بالإهانة تجاه رجولتك التي لم يحالفها الحظ لتكون الأولى في ذاكرتي الجنسية، لكنك ذعرت في مرتنا الثانية التي كنت تنجزها كانتقام كأي رجل سادي يرتدي قناعًا هزيلًا لممارسة الحب ليخترق حميمية جسد بطريقة لا تشبع رغبتهما كحبيبين لا بد أن تتوحد انفعالاتهما معًا، تخيلت أن بقعة الدم التي تركتها لك على فوطة وجهك البيضاء فوق يد الكرسي الهزاز ستكون مسمار جحا الذي يعيدك إليّ لو ضربتك عاصفة لتقتلعك من أرضي.

لم أرفع كأسًا واحدًا على فمي ولم ألجأ لأي عقار يسلخني شعوريًّا عن الحدث الجلل الذي لحق بحياتي، لم أكسر المرايا لم أقص شعري لم أصرخ لم أجلس على الأرض بوضع الجنين لم أفعل شيئًا مما كنت أفعله كلما تعرضت لصدمة، أجلس فوق سريري بعينين متيقظتين، آمر كل حواسي بإدراك ألم الخنجر العالق بي، يقلقني صمتي، أتمنى أن أبكي أو أن أتصرف بتهور، لكني لا أستطيع، أصبحت إنسانة غريبة ليس فقط عنك ولكن عن نفسي،

تذكرت في هذه اللحظة كلامك عن القوة العليا التي تدبر لنا أمورنا، دعني أؤكد لك أن هذه القوة ظالمة ولا تقدم عونًا للإنسان، إلهك الظالم لم يكتفِ بكل ما كتبه عليَّ أنا وأمي من دمار، غسلنا بالألم لدرجة طهرتنا من ذنوب لم نرتكبها، توسلت إليه رفعت يدي ليبقيك في حياتي لكنه سرقك وتفنن في تعذيبي بوهبك لأخرى.

2
رسالة يوسف

سامحك الله يا ليلى..

سامحك الله يا حبيبتي..

لو أدري من ابن الكلب الذي حشر في عقلك المُختل هذه الأفكار العشوائية التي لا قيمة لها! ومن أقنعك بأن العصابيين وأصحاب العاهات النفسية ليس لهم الحق في تشييد أسرة وإقامة حياة طبيعية يحصلون من خلالها على حقوقهم المشروعة في إنجاب طفل يصارعون لأجله كل الآلام النابعة عن عقدهم والتي تجتهد لتسحقهم. إن هؤلاء بالأخص أحوج من غيرهم لفكرة الزواج ليدعمهم في التغلب على أوضاعهم المرهقة كي لا يستسلم بعضهم لليأس المضني والبعض الآخر لنداهة الجنون التي تطالبهم بتسليم

عقولهم بإلحاح، أما ما تدعينه أنتِ فليس إلا نوعًا من الزهد المنحط الذي يستسلم له الإنسان عندما يقرر الاكتفاء بملامسة سطح العلاقات دون أن يجازف في التعمق بها خوفًا من تكرار الوجع الذي لم تساعده تجاربه لاكتساب مناعة ضده.

أتعلمين ما مشكلتك؟ أنك تتوهمين معرفة الأشياء التي تريدينها من الحياة. رغم أن الحقيقة ليست كذلك وأن لا شيء مما تركضين خلفه بكل طاقتك يحمل إمكانية شفائك. إن كل الطرق التي تسلكينها للخروج من المتاهة التي كان دخولك فيها أمرًا قدريًا تزيد أوضاعك النفسية تأزم لدرجة تجعل خروجك منها أمرًا شبه مستحيل. الأوهام التي علقتِ بها أدت بتفكيرك إلى انتكاسة غريبة تحتاجين بعدها لإعادة تأهيل تتعلمين وسيلة للإقلاع عن ممارسة كل أنواع التفكير السلبي.

استنتجتي عشوائيًا أنك امرأة فاشلة كرفيقة حياة وناجحة كخادمة فراش، الآن أحاول تجنب التفكير في رغبتي بأن أجرك من شعرك لأول مرآة فقط لأجعلك ترين لمرة واحدة حقيقة نفسك وأنك لست بائعة هوى ليكون السرير هو الرابط الوحيد بينك وبين أي رجل. اقرئي ما أكتبه جيدًا لأني سوف أصدمك نوعًا ما في كل الأفكار الراسخة بداخلك حول أنوثتك التي تفتقر إلى كثير من أدوات الإمتاع، ما تهبيه في الفراش بإمكان ألف امرأة أن تعطيه بطريقة أفضل منكِ، وحده الحب الذي بيننا ما ميزك عنهن ودفعني للتحديق برغبة واشتهاء لجسدك. تخيلي أنك أصبحتِ رجلًا ليوم واحد وستفهمين ما أعنيه لأنك طالما لم تجربي أن تنظري للآخر بعين

الآخر سيظل ما أقوله مجرد طلاسم. السرير مجرد مرحلة في العلاقات، جملة تحتاجين إلى أن تكتبيها بخط عريض فوق جدران حجرة نومك لتكفِّي عن تحويل الجنس إلى أقصى متعة خلقها الله بسبب إخفاقاتك إلى وسيلة مبتذلة تقايضين بها إعطاء اللذة مقابل حصولك على بعض الأمان حتى ولو بشكل مؤقت.

لم يكن سهلًا أن أختارك بالرغم من ماضيكِ الذي اكتشفت أنك لا تريدين التحرر منه. حولتِ حياتنا معًا تحت سقف واحد إلى جحيم لا يُطاق وحين أعترض على نمط حياتنا الاستهلاكي تثورين ضدي وتتعدين على قلبي بتهديدات التخلي عني مرددة حججك الواهية بأنك لم تخدعيني لأتقبل أوضاعك المختلفة والتي كنت صادقة في إظهارها بوضوح دون تجمل منذ البداية.

في الأشهر الأخيرة كنت حين أستيقظ كل صباح أمرر أناملي فوق قلبي الذابل وشعيراتي الهوائية المنتفخة والذين أصبحوا منهكين لدرجة جعلت أعظم أحلامي الهروب من قناعاتك التي كانت تجرني نحو الموت. لم تلاحظي خيبة أملي بعد أن تهكمتي عليَّ وأنا أتكلم بحنق شديد حول صعوبة استمراري على هذا الوضع أكثر من ذلك، قلت وأنا أشعر بالأسى: «سيقتلني عنادك».

رددتِ ببرود قاتل قبل أن تستديري لتتركي الغرفة غير آبهة بحزني: «الموت ليس سيئًا للدرجة التي تتخيلها!»

أصبحت مضطرًا للهرب منك إلى الشارع، كانت في البداية مجرد فكرة عابرة تتردد في عقلي كرد فعل مؤقت أنفث به الغضب الذي كنت أتنفسه مع الهواء، فما إن أغلقت باب البيت خلفي حتى قفزت على السلالم بخفة راكضًا إلى أسفل البناية لأركب سيارتي وأقودها هنا وهناك دون أن يكف عقلي عن العمل بطريقة عكسية يجلب بها جسدك فوق الكرسي المجاور لي بالصورة التي كنتِ عليها في بدايتنا معًا وكأنه يسعد بمعاندتي، لا شيء كان قادرًا على هزيمتي في تلك اللحظات أكثر من الصمت الذي كنت أكسره برفع صوت المذياع كي لا ألتفت لفراغ المقاعد الخلفية التي أصبحت على يقين أنها لن تمتلئ بأطفالي من المرأة التي أحبها لأشاركهم ذات يوم أغانيهم المفضلة التي لا تستسيغيها بذائقتك الخبيثة وترينها تافهة ولا تطاق. كنت أدقق في ملامح الأطفال كالمحرومين وكأنني رجل مصاب بعقم يمنعه من تحقيق حلم الأبوة. لكن كلينا سليم، ليس لدينا علة واحدة تمنعنا من أن نحيا مثل أي ثنائي قاده الحب للزواج، سئمت من محاولاتي لإنقاذك من نفسك وأنت تتمادين في إفلات زمام أمورك وكأنك اعتدتِ تحميل الآخرين مسؤولية قراراتك الغبية التي تدفعك عُقدك التي تشكلت منذ مراحل طفولتك المبكرة نحوها. أخبريني بالله عليك لماذا تدفعني خطيئتنا للزواج طالما أنني حصلت على ما أردته دون قيود؟ وهل قادت الخطيئة أحدهم معك إلى الزواج من قبل!

بقعة الدم التي تتحدثين عنها كجريمة اتهمتني بارتكابها لم تسِل فوق فراشنا إلا بمساعدتك لأنك هيأتِ كل الظروف لإراقتها. أحسست حين

عرفتك أنك امرأة سعيدة بخسارة كل المراهنات التي تدخلها ولم يكن متبقيًا في حوزتها شيء لتخاطر بخسارته إلا بكارتها التي حملت مسئوليتها كعبء فوق عاتقك وتمنيتي لو بإمكانك إنهاؤها وغلق الملف المتعلق بها للأبد، كنت قلقة أن تفرطي فيها في لحظة تهور خوفًا من نفسك اللوامة التي ستحملك من العذاب ما لا يوجد بداخلك ذرة قوة لاحتماله، فكان الحل الأوقع أن تبحثي عن رجل مختلف عن ذائقتك المنحطة في الرجال لتتحرشي به وتحولينه إلى جانٍ بعد أن تدفعيه لارتكاب الجريمة. لكني بدوري حذرتك من اندفاعك وعبّرت عن خوفي من تحول القصة إلى كارثة يصعب علينا احتواؤها لأن خسارتك التي تتحميلنها بشكل جزئي ستفوق أي خسارة تعرضتِ لها من قبل وربما تظل تبعاتها معك لآخر يوم في عمرك. لكنك قلتِ بشيء من الاستخفاف:

«الاندفاع في الحب قمة الاتزان».

أطفأت الأنوار وغصنا في السرير بعد أن اقتربت من أذني وطلبتِ مني بأن أمزجك بذاتي، امتزاجة أبدية ذات عناق عنيف ونشوة لا مثيل لها ليخرس علو صوت حبنا المنطق. كانت عضلاتك ترتجف كلما همست إليك بنشوة رجل فتعلو آهاتك وكأنك مصلوبة فوق أعتاب الأنوثة منذ ولدتِ وأرسلني الله اليوم لأحررك. أخذ جسدي ينضح عرقًا امتزج مع حبات العرق المنسابة فوق جسدك المشدود وهو يؤدي مهمته التي اعتقد آنذاك أنه قد خلق فقط لأجلها وأن بإمكانه الموت بعد الانتهاء منها وكأنها رسالته بعث بها.

زرعنا هذه الليلة كحقل شوك في جسدينا وفشلنا في انتزاعها بشتى الطرق لتصبح زادي في أيام سأشتاق فيها إلي طعم هذا اللقاء. الذكرى الأولى لكِ يا ليلى، وأنت تعرفين جيدًا مذاق اللذة الأولى للأشياء التي يلهث المرء في دنياه كي يتذوقها مرتين. أنتِ تذوقتها لأول مرة مع هاشم لأنه حكم عليكِ بقدرٍ لا متناهٍ من الألم وعذب روحك لدرجة أن جراحها لن تبرأ.

هاشم تعامل معكِ بفن صياد يتقن كيف يحصل على فريسة شهية بأرخص أنواع الطعم، رمى إليك بطرف الخيط وجلس يستمتع وهو يراكِ تلفيه حول قلبك بنفس راضية، بل ومستسلمة. وعندما سقطت في شبكته بدأت دقات قلبك تستيقظ من إيقاعها الرومانسي على صوت نشاز أفعاله القميئة التي فتتتكِ داخليًّا كإرهابي محترف في تعذيب ضحاياه. عبث بأنوثتك ونسف شعورك بنفسك كامرأة محترمة ثم أباد آدميتك حينما تطاول عليك بكل أنواع الإهانات وأعنفها وقعًا علي نفسية كائن هش مثلك، كم مرة انهال عليكِ بالضرب ليس فقط بيده وإنما بأدوات حادة وعصيٍّ خشبية غليظة وهو يغمرك بأقذر الشتائم بعدها يطردك من بيته ويشهِّر بك أمام أصدقائه الذين لا يختلفون عن شاكلته الوسخة.

هل تودين أن تعرفي ماذا قال عنك وكان الجميع يردده من خلف ظهرك؟ قال إنك فتاة بلهاء ممسوسة بحبه ومهووسة به لدرجة أنه يلقي بك في المزبلة التي اعتاد إلقاء المومسات اللاتي يعرفهن بعد أن يثرن اشمئزازه

لكنه يجدك تعودين إليه من جديد وعلى أتم استعداد للعق نعل حذائه وخراء مؤخرته لو أمرك بذلك مقابل ألا ينهي علاقتكما بشكل يستبعدك من دائرته إلى الأبد.

يؤسفني أن أعترف بانتصاره عليكِ ونجاحه في سلبك أعز ما تملكه المرأة، كرامتها، ألحق الضرر بحياتك مثلما فعلت اليد البشرية بإلحاق الخراب والدمار بالحياة الفطرية. صحيح أنك نجحت في البقاء على قيد الحياة لكنك فشلتى في أن تظلي حية، إن العبرة ليست بأن نستيقظ وننام لنكرر نفس أخطاء أمس الغبية وإنما بجودة الدروس التي نتعلمها من تلك الأخطاء لنُحسن حياتنا المستقبلية. سمحت لإنسان مريض مثله أن يغير في تكوينك ليصنع منك النسخة النسوية منه ليتباهى فيما بعد بأنك تربيته، هو لم يخسر شيئًا لكنك أنت من أضعتِ أحلامك، نسيت طريق الجامعة لتسيري في الطريق إلى محلات الخمور ومروِّجي الحشيش الذين كان يرسلك عندهم لتبتاعي منهم عند اعتلال مزاجه الذي على ما يبدو أنه كان أهم عندك من نفسك.

كان اسمك على وشك أن يدرج بقائمة القتلى أو المجانين في العالم حين أصبح وجوده مصدر قلق وألم ففكرتِ بالتخلص منه بالقتل بعد أن جردته أفعاله في نظرك من صفاته الإنسانية. قلت بلسانك:

«تمنيت له أسوأ الميتات».

ففكرتِ في طعنات عمودية عميقة بسكين حاد يغرز في قلبه أو ذبح

بطيء من العنق يجعلك تنتشين برؤية عذابه وهو ينازع الموت الذي أذاقك إياه.

جلستُ أمامك مذهولًا أحدق في وجهك ببله وأنت تروين كيف خططتِ لتنفيذ عقوبة الموت فيه، لم تتقبلي رأيي حين قلت وأنا شبه فاقد الإحساس بنفسي: «مجنونة كنتِ سترتكبين جريمة تدفعين عمرك ثمنها».

هززتِ رأسك بعصبية وكأن هذياني يؤلمك، كلماتي جعلتك تعتقدين أني تسرعت في الحكم على موقف لم أعشه، عقدتِ حاجبيك ورحتِ تتجولين في الأرجاء كالشاه المذبوحة بعدما أفلتت أعصابك بشكل هستيري جعلني أتسامح مع انفعالك المضاعف في التعبير عن جروحك الداخلية والتي كانت تنزف بمرارة وكأنها تطهر نفسها بنفسها. تخيلت بسذاجة أن يسهل أمر تضميدها على نظافة فيما بعد.

لم يسبق لي رؤية غضب يصل بامرأة لتلك المراحل المصعدة من فقدان السيطرة على نفسها لتقترب بنزق من مزالق الجنون وهي تطرق بكل قوتها فوق حائط زجاجي كان يرتفع بارتفاع الجدار لينهار بين يديها بشكل مخيف، تناثرت قطعه بعشوائية فوق رخام الأرضية، بعد ثوانٍ قليلة تدفقت قطرات من الدم الذي سال من يدك بينه. كنتِ كالفريسة المستسلمة التي نالت منها أنياب وحوش غايتها الوحيدة إشباع غريزتها، خانتك قدماك ولم تحمل جسدك فسقطت بمحاذاة الجدار، اقتربت منك حاولت أن أدفع الألم بعيدًا لأني لم أكن أريد أن أنضم للذين جلسوا ينظرون إليك في سقطتك، اخترقت

نظراتك المتشككة في تعاطفي معك صدري لكني تجاهلتها لتكسو وجهي علامات الانتباه، احتضنت رأسك المتصلب الذي سيطرت عليه أفكار الهزيمة، كانت تحديقاتك بعين دامعة تعذبني وتشعرني بفشل احتوائك لدرجة تخرس ما كنت تكررينه بأنفاس مكتومة «الإرهاب الذي عيشني فيه حولني لامرأة عدوانية».

مرت ثوانٍ حبست أنفاسي لبرهة كي أقلل من التوتر، انتظرت أن تستأنفي كلامك لكنك لم تفعلي، ثمة شيء في تعبيرات وجهك لمس لديَّ وترًا حساسًا فقلت وأنا أنتقي كلماتي بعناية فائقة:

«كيف حدث ذلك بحق الجحيم؟»

كانت الدموع تنساب على خديكِ مددت يدي وأحطت جسدك الذي انهمرت منه موجة برودة. جذبتك لأعلى كي يستقيم عودك، لم تكفِّي عن البكاء طوال طريقنا لعبور الرواق في اتجاه الحمام كانت جراحك لا تزال مفتوحة فغسلناها تحت الماء ثم جلسنا على طرف «البانيو» لنطهر مكانها بكحول كي يتخثر الدم الذي كان يستغرق عندك وقتًا طويلًا ليتوقف نزيفه.

اتجهت نحو المطبخ لأعد فنجانًا من القهوة كنت في حاجة ماسة إليه لأتغلب على الصداع الذي يؤرقني بعدما أخفقت في تجاهل بكائك الذي كنت أهابه جدًّا والذي تحول تدريجيًّا إلى نشيج متوجع. كنت ملزمًا بمعالجة الندوب التي حفرتها قسوة الليالي في روحك فقلت ببساطة: أحكي كي ترتاحي.

قلتِ بنبرة مهتزة بالكاد تُسمع وأنتِ ترفعين رأسك نحوي:

«أعطِ لي نسخة من مفتاح منزله وتعمد دعوتي لأشاهده في الفراش وهو يعتلي واحدة من اللاتي كان ينسى مواعيدي مقابل ركوبة واحدة فوق أجسادهن».

أصابني المشهد وأنا أتخيله باشمئزاز مما زاد توتري وانتابني بحق إحساس شديد بالمرارة التي تتضاعف الآن وأنا أتخيل مدى قدرة نطفة من صلبي وهي تكبر برحمك على شفائك وإعادة النور إلى كل المساحات المعتمة التي انطفأت على يد رجل حقير مثله.

الصدمة التي تلقيتها في ذلك اليوم أصابتك بفاجعة لدرجة أنك أصبحتِ تبكين بهلع في كل المواقف عوضًا عن كتمان دموعك التي لم تذرف وصراخك الذي لم يخرج للعلن وأنتِ تشاهدين امرأة تتلوى كأفعى تحت جسد الرجل الذي تحبينه وأنت تستمعين لأصوات تأوهات مضاجعتهم دون أن تعترضي أو تسأليه لماذا أحضركِ لرؤية موقف كان يدرك أنه سيصيبك بأزمة نفسية لن يزول أثرها.

غادرتِ المكان بخسارتك التي كنتِ بسببها على وشك أن تصبحي واحدة من مجاذيب الشوارع الذين يجلسون فوق الأرصفة يحدثون أنفسهم ويتجردون من ملابسهم على الملأ، لكنك تحولت إلى النوع الأخطر نظرًا لنزوع روحك إلى الوحدة أكثر من الهذيان بشكل هائج. تحولتِ في صمت كالأشباح تدَّعين السلمية بينما تستجمعين شيئًا من قوتك الخامدة تحيكين

بها كارثة من العيار الثقيل كالمجانين الأكثر كآبة وخطرًا الذين ينتظرون اللحظة غير المتوقعة للانتقام بإشعال النار في كل الأشياء حولهم مثلما تم إحراقهم داخليًّا من قبل.

ولجت بسببك إلى عوالم خفية مليئة بتجارب من نوع خاص لم أؤمن بوجودها إلا من خلال القصص الخيالية والدراما التي تتغذى على تضخيم الأحداث والتركيز على الحيوات الاستثنائية لبشر سمتهم الأساسية الاضطراب. لم أستوعب ما حدث معك لأنه كان أشبه بالمغامرات. أصبحت أقرأ بنهم كي أفسر سلوكياتك بطريقة تؤهلني لمساعدتك بشكل مجدٍ. كنت أتردد على الأطباء النفسيين لطرح أسئلتي التي أستخرجها على هامش مواقفنا اليومية معًا، قلت إنني منذ البداية اخترتك وواجبي نحو الحب الذي تركت أمي وركضت حافيًا خلفه أن أحتوي واقعك مهما بدا صعبًا أو بالأحري لا يطاق، أحيانًا كنت أريد طرح السؤال عليكِ بصراحة: «كيف كان إحساسك يوم فكرتِ في قتل هاشم؟»

لكني كنت أتراجع خوفًا من تقليب مواجع الذاكرة التي كانت تقف في وضع الاستعداد للظهور على السطح وتعكير مزاجك بسهولة لن يعرف مداها سواي.

استرجع عقلي الحكاية آلاف المرات تارة لتحليلها بتعاطف وتارة أخرى للحكم بموضوعية. أقسم لكِ أنني كنت أراكِ في خيالي وأنت تمسكين بالهاتف وتطلبين من هاشم أن يمر عليكِ بسيارته للمرة الأخيرة حتى

تنفصلا برقيٍّ بينما قلبك يتصدع بصوت عالٍ لم يسمعه هو لكنني سمعته وأنتِ تروين لي ما حدث يومها رغم مرور سنوات على الواقعة. قلتِ إنكما ركبتما سيارته وانطلقتما في صمت. طلبتِ منه أن يبتعد عن المدينة قدر الإمكان فعرض السفر إلى رأس البر فأومأتِ بالموافقة. هدوؤكِ الخارجي لم يكن يعبِّر عن الحمم البركانية التي تغلي في قلبك وترين من خلالها الطريق أنسب خيار لتنفيذ السيناريو الذي يدور في رأسك بينما يمسك هو الدريسكيون بيد وبالأخرى زجاجة يتدفأ بالحرارة التي تخلفها في جسده بعدما زهد في الإمساك بيدك بعد أن أصبحت تشعره ببرودة مثل الأمطار المتساقطة فوق زجاج سيارته آنذاك.

في عتمة شبه تامة بعد ساعة من هذيانكما المتواصل والذي يتلخص في رغبته في إغلاق العلاقة للأبد ورغبتك في استبقائه في حياتك بأي طريقة. وضعتِ يدك داخل حقيبتك بعدما يئست من إيجاد حل فامتلأت عيناكِ بالدموع لكنك طردتها، قلتِ وأنت تنقضين عليه لتنتحريه من عنقه: «يجب أن أكون شجاعة في وضع نهايته بيدي كما أحرق روحي».

قلتِ إنك تمنيتِ له الألم من كل قلبك، لم أقتنع بادعائاتك حين كررتِ بغباء أنه من دفعك لذلك القرار المتهور. أظن بأنك كنتِ حرة لتختاري القيود التي تفرضينها على نفسك. تهيأ لي أن القدر بدعة تنتمي لمجموعة الشمعات التي تفننت في إسقاط على عاتقها كل اختياراتك الخاطئة. إنك أضعف من تحمّل مسئولية دمار حياتك بيدك، الفكرة في حد ذاتها تقودك

إلى الانتحار لأن الأفضل لكِ أن تستمري كضحية لشخص أو للظروف، المهم ألا تعترفي بأنك من دفعتِه لتدميرك حين ضغط من ذعره فوق فرامل السيارة لينقذ حياته من تحت سلاح امرأة تخيره بين الحياة معها بالإكراه أو الموت.

صفعك على خدك كفًا اهتزت أسنانك لقوته، حدقتما في وجه بعضكما البعض بأحاسيس مهتاجة. التقط السكين من يدك بعنف وألقاها خارج السيارة. كانت الدماء تسيل من أنفك بغزارة لكنها لم تمنعه من أن يصفعك عدة صفعات متوالية. قاومتِه وهو يخرجك من السيارة بالإكراه لكن قوتك كانت تتلاشى تدريجيًا وهو يضربك حد الموت ويشدك بقسوة من مرفقك. دفعك على الأرض. شعرتِ بقدمه تركلك في بطنك فتقيأتِ وكنت على وشك أن تفقدي وعيك. ركب سيارته مرددًا تهديدات وشتائم ظل صداها يتردد في أذنك إلى اليوم.

للموقف جلله فقد تركت يا ليلي على جانب الطريق بعد منتصف الليل وحدك. معتدى عليكِ بالضرب الذي سلبك قدرتك على السير لأقرب موقف مواصلات يعيدك إلى داخل المدينة والذي يفصلك عنه ساعة زمن. شيء في كبريائك رفض أن ينتصر هاشم عليكِ بإنهائك بهذا الشكل المأساوي الذي سيكون إما بالقتل وإما الاغتصاب وكأنك إحدى المومسات اللاتي لن يذرف العالم دمعة عليهن. قاومتِ ونجحتِ في العودة إلى بيت الطالبات سليمة إلا من إحساس القهر بعد أن خلعتِ حذاءك وجريتِ بقوة من يحاول لصق أجزائه المنكسره. في ذاك اليوم تكسّر بكِ شيء

لم يعد كسابقه. استمر شعورك بالإعياء بعد أن استدعتك الشرطة لتمضي على محضر عدم تعرض حرره هو ضدك ليؤمن نفسه. بدأتِ تتبولين بكثرة وتستيقظين من نومك في رعدة وتشعرين بخوف مبالغ فيه،عرفت فيما بعد أن ما كنتِ تعانين منه اضطرابات ما بعد الصدمة لكن الأسوأ أنك حين أجريتِ بعض التحليلات التي طلبها منك الطبيب اكتشفت أن الضغط النفسي الذي تعرضت له تسبب في إصابتك بمرض السكر.

أدمنت التدحرج فوق منحدرات اللاجدوى كصخرة بعدما رسمتِ لي قدرًا يشبه قدر سيزيف. حكمتِ علينا أن تستمر حياتنا في الظلام كمصاصي الدماء رغم قدرتنا على فتح النوافذ لإدخال النور لحياتنا من كل زاوية!

أليس هذا الأنسب لعلاقة ولدت في الخفاء وكبرت واستمرت في السر أن تموت أيضًا في السر! أليست هذه النهاية الأوقع اللي دفعتيني لها بتكلفك في رفض الزواج مني فقط لتكمل قصة دمارك على يدي بعدما وضعتيني في كفة واحدة مع هاشم.

أنا يوسف يا ليلى لست هاشم لأرضى بالعيش معك على هامش الحياة وأتطلع للعالم الخارجي بحسرة من ثقب في الباب لأرى البشر وهم ينعمون بحياة طبيعية فأجلس أدخن وأسكر وألعن حظي إلى أن أفقد عقلي وأفكر في قتلك!

أنتِ حرة في اختيار منوال الحياة المناسبة لكِ لكن دون أن تفرضي خياراتك عليّ، هذه ليست الديمقراطية التي تشدقتي بها لسنوات،

ولم يكن ضمن شروطك لنكون معًا أن تكتبي لي دورًا يصبح خروجي عنه خطأً دراميًّا فادحًا لا يغتفر، لأني أختلف عنكِ ولن أترك حياتي لشخص يحركها في اتجاه لا أريده.

لا أعتقد أنك بحاجة لإثباتات على حبي لكن هل يجب أن أدفع وحدي ثمن الخراب الذي ألحقه غيري بحياتك من رصيد استقراري! أراد الله بنا الرحمة حين جمعتنا الأقدار لكن العطب الذي أصاب قلبك منعك من فهم الرسائل الربانية.

سألتيني وأنتِ تمازحيني ذات ليلة:

«ما هو قمة الصراع بين رجل وامرأة؟»

اتركيني أخبرك اليوم إجابتي وهي أن قمة الصراع نشوء علاقة حب بين امرأة برج الثور ورجل الجوزاء.

• IV •

«الأسرة التي لا تُقام باستمرار تنهار».

"يحيى"

«الطفل الذي لم تحتضنه القبيلة
سيعود ويحرقها ليشعر بدفئها».

"مثل إفريقي"

1

بعد قراءتي للرسالتين. انتابني شعور بالتعاطف وكأني من أنجبهما.

كان أبي في نظر الجميع العاقل الذي يقود المجنونة لكني الوحيد الذي أدرك الحقيقة بكل كيانه أن كليهما كان أعمى ومجنونًا. تملكتني حالة من فقدان التوازن أثر صدمة ما تكشف لي من الجانب المستتر للحكاية فلا أجد في نفسي إلا انطباعًا واحدًا هو أن علاقة أبي وأمي كانت استنزافًا لحياة وطاقة كليهما. من حسن حظي أن كليهما كان أمينًا في رواية تفاصيلها الخاصة. مما سمح لي بتكوين فكرة واقعية عن علاقتهما السامة التي رفضت انعكاس تداعيتها القاسية على حياتي وعدم اتخاذها كمقياس لتجاربي الشخصية فيما بعد، أشفقت على أبي، وأردت أن أكون سندًا لأمي لكني سعيت ألا أحطم نفسي فجاهدت كي لا أصبح ندًّا حاقدًا عليهما. لم أنبذ نصائحهما رغم إثقالها عليَّ نفسيًّا الذي ضرني أكثر مما فادني نظرًا لكونهما ثنائي من أصحاب العثرات الكبرى اللذين فشلا في تأسيس حياة أسرية متزنة قائمة

على نقاش، كانا لا يعرفان إلا الجدل لتناول الأمور. كل منهما يتحدث من الجهة المقابلة للآخر. أمي ترفع صوتها فيبدأ هو في رفع صوته بالتبعية لتعلن الحرب في بيت سقط كل من فيه ضحايا للعند الذي يسيطر على الإنسان حين يسعى للانتصار لذاته أكثر مما ينشغل بالانتصار للحق، كان الرضوخ لمعاييرهم المختلة بعدما كشفت أمر المناورات النفسية التي مارسوها على بعضهم البعض دربًا من الجنون الذي أردت أن أنجو بعقلي منه ووددت لو أخبرهما على استحياء بأن الأولى بهما إعادة النظر في أحوالهم المتصدعة بدلًا من الانشغال بتوجيهي لاتجاه معاكس لما يريده الآخر.

كان الاختيار خاطئًا منذ البداية فأبي لا ينتمي للنمط المعتاد الذي تجيد أمي التعامل معه ورغم ذاك كانت أضعف من أن تنسحب من علاقة ليست على مقاسها فتحايلت على تشتتها بين هذا وذاك بسعيها المستمر لتشويه أبي باستفزازه لتخرج منه النسخة الأسوأ.

أخفقت أمي في تغيير حياتها للأفضل من خلال اكتساب أنماط جديدة تدحض بها المسارات القديمة التي كانت تعمل بشكل تلقائي على تدميرها. صارحتني بأن الزواج كان مشروعًا أكبر من إمكانيتها النفسية خاصة بعد الشرخ الذي أصاب عصب حياتها برحيل أبي والذي لم يرممه بعودته إليها بعد وفاة جدتي، أي بمرور سنة من زواجه هو ومريم ليستأنفا حياتهما بعد فراق استمر اثني عشر شهرًا. قال إنه كان يستيقظ خلالهم كل صباح معلقًا من قلبه فوق مشانق الحنين لا يدري كيف انتهى به المطاف إلى هنا، عاش صراعًا لا ينقضي وهو يعيش شعور الاغتراب في بيت لا يشعر فيه

بالانتهاء فباءت كل محاولاته للتكيف معه بالفشل!

كان يستيقظ في منتصف الليل يوميًّا مذعورًا مبللًا بالعرق وقلبه يخفق بشده أثر تكرار رؤية نفس الكابوس الذي عرف حين قرأ أن للمنامات المتكررة دلالات فاعتبر ذلك انتفاضة ضميره الذي كان يستغيث وهو يتآكل من إحساس الذنب تجاه أمي التي كانت تزوره في صورة هزيلة يرتسم فوق ملامحها تعبيرات الفقد لتعذبه لكنها تظل صامتة بطريقة لا تشبه طريقتها المعتادة في تفريغ شحنات الغضب، يركض خلفها بحماس زائد ورغبة ملحة ليلمسها لكنها تمنعه بنظراتها القاسية من الاقتراب قبل أن تنزوي في أحد الأركان وهي تحتضن جسدها ثم تنكمش على نفسها مرتجفة لتتكور في وضع الجنين حتى تتلاشى أمام عينه كفراشة احترقت دون أن يتقدم خطوة واحدة لإنقاذها من الموت، قال إنه كان يهرع من نومه كمن أفلت الدنيا بكل متاعها من بين يديه ويظل هول المشهد تاركًا في نفسه شعورًا عارمًا بالعجز. يُطيل النظر في المرآه متأملًا خطوط وجهه التي كتب عليها التشبع بالتوتر والإرهاق ليجد نفسه قد وصل مبكرًا لمرحلة الشيخوخة وهو لا زال في العشرينيات من عمره. كانت أمي مليئة بالاضطرابات لكنه كان بالفعل غارقًا في حبها رغم مرضها لأن ذاكرته كانت ما تزال تسرقه إلى بيتها ذات الذوق الكلاسيكي الذي رآه نعيمًا أرضيًّا بعد اختباره الحياة في بيت آخر شعر بالانفصال الوجداني عنه وهو يتأمل تفاصيل الجدران وألوانها وترتيب الأثاث مستنكرًا كيف يكون ذلك البيت بيته وهو لا يلتمس الحميمية في ثناياه.

رفع نظره إليَّ وبنظرات حزينة قال متنهدًا:

-كنت أنتشي برؤية أمك وهي تجلس بعصبية فوق كرسيها الهزاز بمحاذاه النافذة مرتدية قميص نوم من الستان الذهبي كامرأة تستحق دور البطولة في لوحة عالمية.

لكنه سرعان ما كان يعود لواقعه الذي دفعته لمعايشته مرتين، الأولى حين تكلفت في رفض الزواج منه والثانية حين انفصلا ولم يكن أمامه وقتها سوى قبول الحقيقة بكل حواسه بأن بيت مريم سيكون بيته الأبدي وأن لا عزاء لأمره إلا وجودي أنا وحمزة أخي معه بين جدران بيت واحد مع أم بديلة لأمنا البيولوجية.

تخيل أبي أن بإمكانه إصلاح ما أفسده الفراق بينه وبين أمي بمجرد عودته نادمًا إليها وتجديد عرض الزواج الذي لم يكن الهدف من ورائه تكوين أسرة والذي يعتبر السبب الأساسي الذي يدفع أي ثنائي لاتخاذ قرار الزواج لكنه تقريبًا كان قد أصيب بعقدة هو من صنعها بتخبطه حين تزوج بقرار عشوائي فقط ليصبح أبًا لأبناء من امرأة يدرك أن قلبه ملك لغيرها، في غيابه كانت أمي قد تحولت من امرأة متعثرة شجاعة قد تأخرت في الوصول للحياة التي تتمناها إلى امرأة فاشلة بليدة قد باعت قضيتها وتوقفت عن محاولة إيجاد الطريق بعدما عادت لمنوال حياتها القديم تشرب بشره وتدخن بنهم.

أخفقت في تقبل النهاية التي أجبرت عليها مع كل رجل يدخل حياتها

برباطة جأش وحكمة لكنها لم تصل لإجابة فقررت معايشة المجهول الذي تواجهه امرأة بعد انتهاء قصة حب فإما أن تتغير حياتها للأفضل في محاولة منها لتخطي الهزيمة وتعويض نفسها عن الخسارة العاطفية باكتساب عادات جديدة وإما أن تتدهور أحوالها لتسحل في سلسلة من الخسائر بعد أن تكون بالفعل قد خسرت من أجل الحب أعز ما تملكه النساء أجسادهن وكرامتهن.

كانت نائمة على بطنها تحتضن الفراش حين شعرت بيد تعرفها جيدًا تعبث بخصلات شعرها المتناثرة. حاولت استجماع قوتها لمغادرة السرير لتجاهل الهلاوس التي يتسبب فيها إسرافها في تناولها للكحوليات. لكنها حين عدلت من وضعها وفركت عينها بقوة تأكد لها أن الوجه الذي يترنح في ظلام الغرفة حقيقي وأنه أبي بشحمه ولحمه فعصف بقناعتها الشخصية التي أمدتها بها تجربتها الأولى وهي أن من رحل بإرادته لا يعود، نعم قالت إن تلك الجملة حقيقة مئة في المئة لكن في حالة واحدة فقط عندما يكون الرحيل قرار عقلي مجرد من عاطفة القلب الذي كان لايزال به من الحب ما يدفع أبي للرجوع.

شهدت أمي بالعبقرية لصاحب مقوله «التاريخ يعيد نفسه» لأنه وثّق من خلال جملته لغز الدائرة المفرغة التي تسير فيها أمور البشر العاطفية، نحن نجاهد بكل ما أوتينا من قوة لتفادي أخطاء من احترقوا أمامنا، سخف ما يدفعنا لتصديق وهمنا الجميل بأننا أكثر قدرة على تفادي أخطائهم والتعلم منها فإذا بنا نكتشف أننا قد أسرفنا في الاقتراب مما أفرطنا في مقاومته،

تختلف الطرق لكن ثمة لعنة ما تجعلنا عرضة لارتكاب نفس الأخطاء المريعة دون وعي رغم أن غيرنا حذرنا من حماقة السقوط فيها.

تقززت من لمساته وهو يمد أصابعه ليتحسس بشرتها بحنين فعادة عندما تنفر أرواحنا من الآخر تصبح لمساته لنا حادة كسكين كُلما اقتربت منا نزفنا. استجمعت صوتها بصعوبه لتسأله: لماذا أتيت؟ سؤال كان ينبغي طرحه إلى أن تستعيد توازنها.

جذبها نحوه ليسيطر على انفعالتها قبل أن تتأجج لكنها لم تحتمل ودفعته بقوة مرددة سؤالها عليه مرة أخرى بعصبية: لماذا أتيت يا يوسف؟

شرح السبب كأبسط ما يكون:

-لأعتذر عن انتهاكي لعلاقتنا، إنني ارتكبت ما لم يتوجب عليَّ فعله وفقًا للقوانين الأخلاقية المتفق عليها لتحكم أي قصة حب.

مكثت عيناه في عينيها السوداوين وحضن ملامحها بابتسامة هادئة وكأنه يترجاها بأن تساعده ولو لمرة واحدة كي يصلا بعلاقتهما إلى شاطئ الأمان أو إلى نقطة محايدة. لكنها لم تبتسم وقالت بجدية:

- لقد خيبت ظني فيك ولا يحق لك أن تكون هنا لتعتذر.

- أعيدي التدقيق فيما حدث لتدركي كم الأخطاء التي ارتكبتها في حقي.

- أخطائي لا تحتاج لإعادة النظر فيها لأنها ببساطة آذتني وحدي وهذا أمر لا يعنيك في شيء.

- هذا من وجهة نظرك الضيقة! في الواقع أنها أتلفتني أنا أيضًا.

- فليكن! لماذا تعود الآن لجحيم قد نجوت منه لعام كامل برحيل غير منطقي وحجج لا يصدقها طفل لكنها أدت الغرض.

- اتركي الماضي ودعينا نمضي قدمًا للأمام ونتزوج يا ليلى.

- لماذا لم يخطر ببالك أنك ستأتي فتجد رجلًا آخر بجواري؟

- ومن قال لكِ أنها لم تخطر في بالي! إنني أحفظ عن ظهر قلب طرقك الرخيصة في التعافي الكذاب لكني حين وجدت نسخة المفتاح التي بحوزتي تدور في «كالون» الباب بانسيابية تأكدت أنك تنتظريني.

- ربما تكون محقًّا في أنني انتظرتك طويلًا فقد كنت أجلس لليالٍ مثبتة نظراتي فوق الباب على أمل أن تأتي لكني كففت عن فعل ذلك عندما تحول الانتظار إلى حالة من الموت البطيء الذي أفقدني الأمل في رؤيتك من جديد، لكنك فاجأتني بحضورك المباغت كغيابك، وليس فقط لتراني وتذهب لإستكمال حياتك ولكن لتجدد عرضك الذي رفضته يوم كنت المرأة الوحيدة بحياتك فهل تتخيل أني سأوافق بأن أصبح زوجة ثانية أم أنك اعتدت الهروب من بيت أي امرأة تعاشرها!

أنت حر تمامًا في قراراتك التي تخص حياتك معها لأنها أمور لا تعنيني

ولست طرفًا فيها لأتحمل مسؤولية وجعك ووجع من ستوجعهم معك، طلبك لن يرد لأنوثتي ما أهدر منها حتى لو تحدثت على مدار ساعات متواصلة عما أفتقدته معها وجئت لتبحث عنه هنا. لن أقبل أن أكون سببًا في خيبة أي إنسان حتى وإن كانت المرأة التي سرقتك مني لتتزوجك فأنا لا يحق لي أن أعاتبها فماذا يعني قلبي لغريبة مثلها كي تهتم بأمره! لاشيء! العيب عندك. الرجل الذي تخلى عن حبه بسهولة وسلبني كل حقوقي أهمهم حقي في جلسة وداع أفرغ فيها ما بقلبي شيئًا يشبه تغسيل الميت قبل إكرامه بالدفن. اذهب يا يوسف لزوجتك كي لا تقلل من نفسك في نظري لأنك ستتلاشى إن زدت خطأ واحد على قائمة أخطائك الفادحة التي دونها قلبي عليك.

استجاب لطلبها في المغادرة كي لا تصل الخسارة بينهما كعادتها إلى القمة، كان يدرك أنها تنتمي لأولئك الذين يفقدون السيطرة على شراستهم في لحظات الغضب التي تُحمل بها الكلمات فوق طاقتها وتلبسها من التأويلات ما لا يعنيه الآخر، في داخل كل منا منطقة بركانية نشطة للغاية قابلة للانفجار في حالة العبث بها وكانت تلك المنطقة عند أمي أكثر حساسية من الآخرين مما جعل مجرد الاقتراب منها ولو على مهل يزيد الأمور سوءًا.

اعتقد أبي أن مبالغتها في ردات الفعل كانت تنتمي لتصوراتها الشخصية بأنها كائن مرفوض مما تسبب في توليد شعور مرعب لديها بالتهديد لدرجة تجعل حيلها الدفاعية دائمًا في وضع الاستعداد.

لم تترك لنفسها فرصة تراجع بها الحديث الذي دار بينهما بعد أن تركها

وحيدة بعينين غائرتين يملأهما العجز كانت كل ما تفكر فيه وهي ترتدي ملابسها أنها لن تسامحه ليس فقط على ما فعله حين غاب عنها بطريقة غامضة لكنها لن تسامحه أيضًا بالنيابة عن كل من خذلوها، لقد أرغمها على الانتقام لكرامتها وكان لا بد لشخص أن يدفع الثمن.

قالت إنها ثملت بالدرجة التي وصلت إليها ليلة استدعتها الشرطة لتمضي على محضر قد حرره هاشم ضدها بعدم التعرض بعدما شاهد بعينه أن جنونها قد وصل لمرحلة دفعتها للتفكير في قتله. قالت إن إدمانها الكحوليات كان سبب ذهابها لطبيب نفسي لأن الخمر كانت البديل الوحيد لتعطيل عقلها عن التفكير في آلامها الغائرة والهروب منها إلى سعادة كاذبة وشعور مصطنع بالجلالة، قالت وهي تضيف لتوضح أكثر:

– من يشرب مرة واثنين نادرًا ما لا يسعى لتكرار التجربة خاصة إن كانت قد أوصلته إلى شعور وكأنه تحول من آدمي حقير إلى إله أو ناطحة سحاب!

أثناء سعيها للتخلص من لقب «خمورجية» كانت أيضًا تأمل في التعافي من الحب الذي اعتبرته إدمانًا من نوع آخر لا يقل خطورة عن المخدرات.

عزمت ألا تقع في حبائل الحب مرة أخرى لكنها كلما كانت تقول للشيء كن فلا يكون. قاومت علاقتها بأبي وحاولت السير في طرق معاكسة لكنها في كل مرة تجد نفسها عادت إليه خاصة أنه كان متعلقًا في طرف قلبها كطفل شعرت تجاه قلبه بالمسؤولية.

تزوجته في النهاية كان ذلك الحل الأنسب لها أن تصبح زوجة ثانية في قفص أفضل من أن تستمر في الحياة حرة تحمل لقب مومس، قررت أن تحصل على نصف رجل أفضل من ألا تحصل على شيء وكأنها كانت اعتادت ألا تكون المرأة الوحيدة في حياة رجالها. أخفت عنه بضمير بارد سئم التبرير دخولها تجربتين عابرتين أثناء غيابه عنها، محاولتين للتداوي المبتذل لإيجاد من يشفق عليها، تلك القصص التي ندخلها دون أهداف واضحة فقط لنوهم أنفسنا بأننا مضينا قدمًا للأمام وتخطينا الماضي لدرجة تسمح لنا أن نعشق مرة أخرى رغم أننا نكون حينها تحولنا إلى جثث بلا روح ولا عاطفة.

2

بالفعل كنت أجهل ما يدور في الخلفية المضطربة لعلاقة أبي وأمي.

أفصحت عن السبب بحدة وانفعال في إحدى الليالي حين عبرت باستحالة مسامحته فيما حدث بينهما وأنها لولا العلة التي تسبب لها فيها لما تزوجته. دخلت هذه المؤسسة فقط لرغبتها في تدميره نفسيًّا محاولة بائسة لتعويض خسارتها التي ظنت بأنه خطط لها بذكاء ليربطها من قلبها للأبد بالقيد الذي كرهت فرضه عليها كحل لا بد منه، في وقت كان لا يحركه إليها إلا الحب منتظرًا منها أن يمسكا يدًا بيد بثقة ليتجاوزا أمر الخسارة معًا.

كانت تصوراتي مشوشة عن خلافاتهما المتصاعدة دائمًا من طرف أمي لكي أكون أمينًا والتي أدت لانفصالهما بعدما أصبحت تتجنبه بتعمد لتقضي كل وقتها في عزلة اختيارية كانت تثير بها جنونه، فعادة هذا النوع من الإهمال يصيب الطرف الأكثر حبًّا بالذعر الذي يدفعه لافتعال مشكلات تافهة ليتجاذب أي نوع من الحديث معها بعد توقفها حتى عن إلقاء تحية

الصباح ولو مجاملة خاوية للرجل الذي أثمرت علاقتها معه طفلين أي أنها تحولت لأكثر من هراء عاشقين.

لم يكن انفصالهما مؤلمًا بالنسبة لي، في البداية كان أفضل من العيش في بيت يضج بالصراعات الغامضة التي جعلتني شاهدًا على خفوت بريق الحياة عن عين كليهما إلى أن انطفأ نهائيًا. تجاوزت سريعًا غياب أبي الذي استمر لأشهر بعد أن تألم لدرجة أفقدته الأمل في إصلاح حياته معها. تركنا أنا وأخي في معيتها بناءً على رغبتها الملحة في الطلاق الذي رفضه بكل قوته واستماتت هي كي لا يتم رسميًا.

نعمت بالنوم بجوارها في فراش واحد يوميًا. رغم مرور وقت طويل على ذلك فإنني أتذكر بوضوح تفاصيل الليالي التي كانت تحاول جاهدة كتم صوت بكائها كي لا تثير ذعري حين أستيقظ كعادتي على صوت نشيجها المؤلم لكنها في نهاية الأمر تفشل في التماسك لتنتهي بي بعض الليالى فوق أرضية الحمام بجوارها في محاولة لتهدئتها مثلما كنت أرى أبي يفعل معها عندما يسوء الوضع.

بدأ يزورنا على فترات متقطعة. ظاهريًا كان الاطمئنان على كيف تسير أمورنا هو السبب، أما في الحقيقة فإنه كان يعود ليسمم بدنها بادعاء سعادة لم يعيشها بعدما فشل كلاهما أن يتجاوز غيابها فحوله الفراق والرفض الذي كانت تبثه تجاهه إلى كتلة من الجفاء تريد أن تشطر قلبها نصفين دون رحمة مثلما أبعدته عنها رغمًا عنه.

البؤس الذي تخلفه زياراته سربل بداخلي شعورًا موحشًا تجاهه مما تسبب

في هوة ساحقة بينه وبيني جعلتني أكره رؤيته التي كانت تنعكس عليها بصورة سلبية تصل إلى الانهيار الذي يدوم مداه لأسابيع بعدما فقدت الأدوية المهدئة مفعولها على تحسين مزاجها الذي أصبحت أتفه الأسباب قادرة على تعكيره بضراوة.

كانت خواطرها لا تستقر. تداهمها أفكار متفرقة لا يعلم المرء من أين تبدأ وإلى أين ستنتهي! لكنها كانت تعبر عنها بجمل مشتتة تخرج منها بلا وعي والدموع لا تتوقف عن الانزلاق فوق وجهها. تمكث في السرير بعدها لأيام فاقدة القدرة على النهوض للقيام بأبسط الأنشطة اليومية كإرضاع حمزة.

بدت قبل تلك الليلة وكأنها محبوسة في ناقوس زجاجي عزلها عمّا يدور حولها، سحبت داخل دوامة صمت عميقة وحالة مضاعفة من اللامبالاة تجاه كل الأحداث، أخفقت في عدم إثارة انتباهي لترددها على الحمام بكثرة في محاولة للتعتيم على الغثيان والتقيؤ المستمرين معها لأيام.

أرقتني حالتها الصحية التي تتدهور يومًا بعد يوم ويتمدد الحزن لينال من كل أركان روحها.

عرضت عليها أن نستعين بمساعدة بأبي لكنها رفضت قائلة بمرارة والشحوب الشديد يملأ وجهها:

– رأسه يضج بالأولويات التي لست من بينها.

كذبت وادعت أنها بخير كي لا يزداد قلقي لكنها سرًا كانت ترتب لحدث عظيم الهول تتغلب من خلاله على إيقاع حياتها التي لا تستطيع

إكمالها كأم تتحمل مسؤولية طفلين في حين أنها مريضة نفسيًا وجسديًا لدرجة تجعلها بحاجة لشخص يتحمل مسئوليتها!

لقد خططت لموتها لعل الذي خلقها يهتم بأمرها لو عادت إليه.

اصطدم أبي بجثتها ملقاة في بهو الاستحمام غارقة بدمائها بمحاذاتها سكين قطعت به أوردتها بينما وضعت لي من حبوبها المنومة ما يكفي لقتلي وتركت أخي الرضيع الذي لم يكمل عامه الثاني دون إرضاعه ليومين حتى فقد الوعي نهائيًا.

حادث مفجع ظل لفترة السيرة الوحيدة التي يسف فيها الجميع، ورغم أن ثلاثتنا نجونا من الموت الذي حلق ليلتها فوق رؤوسنا في محاولة لانتزاع أرواحنا فإنه نجح في العروج بروح الطفل الذي كان يكبر في أحشاء أمي منذ شهر والذي لم يكن ابن أبي.

في المرة الأخيرة التي رأيت فيها أبي وأمي معًا. كان أبي يضغط على نفسه كي لا يناقش تفاصيل جريمتها الأخلاقية أمامي لكنه سقط من على شفا الانهيار وانخرط في بكاء أكثر مرارة، حبس أنفاسه وشهق قائلًا:

- كيف سمح ضميرك بكسر أسرتنا لتبلغ هذا الحد!

كان عليّ تركك للموت دون إسعافك.

لم تصدر أمي أي رد فعل وكأنها لا تأبه بما قاله، كانت تنظر في عيني لترى تفاعلاتي مع ما يقوله أبي، حاولت التغلب على شعور الخوف الذي كان ينمو بداخلي لحظتها دون معرفه السبب، فقط كنت أشعر بقبضة حديدية موحشة تدمي قلبي شيء بداخلي تنبأ بأن حياتي ستتبدل منذ ذلك الحين إلى الأسوأ.

اتخذ أبي قرارًا صارمًا بانتزاعي أنا وحمزة من حضنها وزرعنا في حضن مريم. حكم عليها بالسجن مدى الحياة في بيتها لمعاقبتها على العار الذي ألحقته بنا. عزلها عن الدنيا.

رغم قوانين أبي القاسية لمنعنا من رؤيتها وبعدي عنها بعد أن أصبحنا نسكن بيتين مختلفين فإنني كنت أزداد تعلقًا بها وتزداد تعلقًا بي. صورتها التي لم تغادر قلبي قط دفعتني لافتعال مشكلات لا حدود لها مع مريم التي أتذكر جيدًا كيف كانت تصفها أمي: «الوسخة التي سرقت يوسف».

عاملتها كخادمة اشتراها أبي لنا لكنها كانت تواجه ثورة الغضب الطفولية التي تجتاحني برباطة جأش مما يزيد كرهي لها لأنها تحرمني فرصة الإمساك بخطأ واحد عليها لأشتكيها به أمام أبي. كان مجرد انعكاس ظلها أمام غرفتي يثير في داخلي رغبة مرعبة في التعدي عليها بالضرب.

سفر أبي كان المتنفس الوحيد لغضبي، فرصة لا تعوض في إهانتها وفعل ما يرضيني أو بالأحرى ما يرضي أمي بكرامتها، وصل الأمر لدرجة أنني ألقيت ملابسها على عتبه الشقة وطردتها بملابس البيت وأغلقت الباب وجلست أستمتع بشرب عصير برتقال في هدوء نفسي وكأني أقوم بكل ما سيرضي أمي لو علمت به. لم يشفع لها عندي إلا تعلق حمزة بها ظل يبكي ويترجاني في إعادتها للداخل ففعلت على مضض كي لا أكسر قلبه من فراق المرأة التي كان يناديها بماما. كان على وشك فقدان وعيه من البكاء فتذكرت شعوري أثناء ليلتي الأولى بدون أمي. ظل ابن أمي نقطة ضعفي الوحيدة التي تقف عائقًا بيني وبين هذه المرأة.

تحسنت علاقتنا من عام لعام بعد أن بذلت لأجلي الكثير لإثبات نواياها

الطيبة. كنت أضغط عليها لتتوسط لي عند أبي لتقنعه بحاجتي برؤية أمي. لكنه رفض بشدة لعدم قناعته بأن تواصلي معها سيضيف لي شيء.

تحدثت معها بصراحة مطلقة قلت إن عليها أن تصحح الخطأ الذي ارتكبته قديما في حق أمي، وافقت بأن تصبح الجسر الذي يربطني بها مرة أخرى. حرضتها على سرقة مفتاح بيت أمي لاستخرج منه نسخة تظل بحوزتي لأتمكن من زيارتها وقتما أردت فلقد أصبحت مراهقًا يحق له أن يحكم على القصة بحيادية، يسمع من الطرفين. لم أكن أتطلع سوى لذلك أن أعتني بأمي ليكتفي كلانا عاطفيا.

اعتبرت حصولي على المفتاح انتصارًا انتظرت تحقيقه لسنوات وكأن دعواتي تصل إلى الله للمرة الأولى، طاردتني رغبة في البكاء بعد شعوري بأنني حزين ومحطم. عشت أيامًا متشابهة لا شيء يميز بعضها عن الآخر وكنت في أقصى درجات الوعي لأعترف أنني لن أعيش مراهقة طبيعية مثلما لم أعش طفولة طبيعية.

بدت السماء باهتة والليل مخيفًا والقمر منطفئًا، تمنيت لو أن الصباح يأتي سريعًا كي أذهب لألقي بروحي الهزيلة في حضن أمي أستجديها بأن تعيدني مرة أخرى للرحم.

كل الأطفال تكبر فيسارعون للابحار ضد تيار أمهاتهم إلا أنا كنت أبحر بمركبتي في اتجاهها. الكل يسير إلى الأمام ووحدي أهرول إلى الخلف.

تمت

المؤلفة في سطور

آية مصطفى البحقيري، مواليد مدينة المنصورة 1990. أنهت دراستها في كلية التجارة قسم محاسبة عام 2011، ثم التحقت بكلية الآداب قسم العلوم النفسية والاجتماعية وأنهت دراستها فيها عام 2016. في عام 2017 حصلت على تمهيدي الماجستير في العلوم الاجتماعية. بدأت في الدبلوم الدولي للتعامل مع السلوكيات الإدمانية التابعة لبرنامج الحرية للعلاج والوقاية من الإدمان والإيدز، 2019.
تعمل الآن اخصائية نفسية في مستشفى لايف للعلاج النفسي والإدمان.

البريد الإلكتروني:
Ayah.Elbahkiry@hotmail.com



بـدا لي نصـل السـكين لامعًـا ومغريًـا، ورغبـة عارمـة تدفعـني إلى التقاطـه بشـكل مُلـح، شيء قهـري يـزج بي نحـو اتخـاذ قـرار خطـير، أن يقطـع حـده المتعرج جلد رسغي الناعم.

أمنيتي المُلحة هي وضع نهاية حاسمة لحياتي، مهما بدت هـذه النهاية مؤلمة ومأساوية، أسئلة مرهقة تتردد بعنف في رأسي، أعياني البحث عن إجاباتها.

تشرق الشمس! وأنا في حالة شعور باللاجدوى. أتساءل: ماذا يعني أن تشرق الشمس إن كانت عاجزة عن إضاءة كُل مساحات العتمة التي تحاصرني؟! الأجدر بها أن تغيب.

حققت أرقامًا قياسية في الهطل العاطفي وحان الوقت لأسدل ستار حياتي بحسم كاعتراض مني على مشيئة الرب الذي خلقني أنثى، سأذهب إليه بإرادة حرة كي أخبره وأنا أتهاوى أمامه من البؤس الذي اقتات على كياني الأنثوي بأنني أصبحت متعبة جدًا من كوني امرأة.

أتحسس شرايين يدي بعنف، وأنا أبتسم بلا مبالاة.

لماذا خُلقت الشرايين؟

الشيطان الذي يعبث بروحي يهمس: خُلِقَت كي تقطع.

